

إمارة أبو عريش

(١٢٣٥ - ١٢٥٩ هـ / - ١٨٢٠ - ١٨٤٣ م)

«دراسة وثائقية»

الأستاذ الدكتور إسماعيل بن محمد البشري *

أولاً : إمارة «أبو عريش» والنفوذ المصري :

لقد وضعت حملة خليل باشا على إمارة «أبو عريش» في أوائل عام ١٢٣٤ هـ نهاية لحكم أسرة «أبو مسمار» ، أحد فروع الأشراف «آل خيرات» ، التي حكمت تلك الإمارة خلال الفترة من (١٢١٥ - ١٢٣٤ هـ) ^(١) .

وقام خليل باشا خلال وجوده في «أبو عريش» بتسليم إدارة الجزء الشمالي من المخلاف السليماني الممتد من «ميدي» جنوباً إلى «صبيا» شمالاً، إلى الشريف علي بن حيدر ، الذي كان قد استنجد بمحافظ مكة المكرمة حسن باشا لمساعدته ضد الشريف حمود ، نظراً للخلاف الذي دب بين الطرفين عام ١٢٣٠ هـ .

ومن ناحية أخرى سلم خليل باشا إلى إمام اليمن - المهدي عبدالله - الجزء الجنوبي

(١) انظر التفصيل في بحثنا بعنوان : حملة خليل باشا على إمارة «أبو عريش» منشور .

* بكالوريوس من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٣٩٩ هـ .

- ماجستير من جامعة الأزهر عام ١٤٠٣ هـ .

- دكتوراه من جامعة ورم ببريطانيا عام ١٤٠٨ هـ .

- أستاذ بقسم التاريخ بجامعة الملك خالد في أبها .

من تهامة اليمن من «ميدي» شمالاً إلى «حيس» جنوباً ، وذلك وفق شروط معينة وافق عليها الإمام، وأرسل من صنعاء القاضي محمد الحرازي مع يوسف آغا - مبعوث خليل باشا - ومعهم مسؤولون تم تعيينهم عمالاً على مختلف المناطق، وتم استلام هذا الجزء من خليل باشا قائد العساكر المصرية^(١).

وفي شهر ذي القعدة عام (١٢٣٤هـ) عاد خليل باشا بقواته إلى الحجاز عن طريق ميناء «الشقيق» بعد أن ترك بعض الحاميات التركية في «أبو عريش» و«صبيا» وغيرهما من المدن الرئيسية في المخلاف السليمانى ، ورافقه الشريف علي بن حيدر إلى هناك لتوديعه^(٢).

ومن هنا يبدأ دور جديد من أدوار تاريخ إمارة «أبو عريش» في ظل فرع آخر من الأشراف هو «فرع آل حيدر» وتحت التبعية لمحمد علي باشا والدولة العثمانية .

ولم نعر فيما بين أيدينا من الوثائق أو المصادر على ما يشير إلى وجود شروط معينة التزم بها الشريف للبasha ، أو الدولة العثمانية، وفيما يبدو أن البasha قد اكتفى بإعلان الشريف الخضوع والتبعية في تلك الفترة التي تلت سقوط الدولة السعودية الأولى التي كان نفوذها قد وصل إلى المنطقة خلال حكم الشريف حمود بن محمد أبو مسمار (١٢١٥ - ١٢٣٣هـ)؛ ولعل هناك سبباً إستراتيجياً آخر كان يهدف إليه البasha من سيطرته على تلك الإمارة ، وهو اتخاذها قاعدة متقدمة له في سبيل السيطرة على السواحل اليمنية ، وهو ما تحقق له لاحقاً . ومن ناحية أخرى أن تقوم بدور فك الكماشة الآخر ضد إمارة عسير المتمردة ، وذلك بأن تكون إمارة «أبو عريش» مساعداً رئيساً للقوات القادمة من الحجاز.

عاد الشريف علي بن حيدر إلى «أبو عريش» ، وبدأ في اتخاذ الخطوات اللازمة

(١) د . حسين بن عبدالله العمري . مائة عام من تاريخ اليمن الحديث ، ٢٢٧ .

(٢) الحسن بن أحمد عاكش . الديباج الخسرواني ، ٢٤٢ .

لإعادة تنظيم الأمور، ولكنه فوجئ بتمرد الشريف محمد بن منصور بن ناصر (١٢٣٥هـ) والذي استقر به المقام بقرية «الحسيني» من وادي «صبيا» .. وجهز الشريف علي جيشاً وتوجه به إليه ، وعندما علم بذلك فرّ هارباً إلى جبال «الحساب» ، وكادت أن تحدث معركة بين الشريف علي وبين أهل «الحسيني» لولا توسط البعض للصلح ، والاتفاق على وضع رهائن منهم لدى الشريف^(١) .

وفي عام ١٢٣٦هـ عين الشريف علي بن حيدر ابن عمه الشريف زيد بن ناصر بن محمد عاملاً على «صبيا» ومخلافها ، على أن يكون لإخوانه نصيب من محصول البلاد ، واستغل الشريف زيد الفرصة ، وأراد الاستقلال ، عندئذٍ واجه الشريف الموقف ، وخرج على رأس جيشه، ووصل إلى «صبيا» وحاصرها، وقام بإطلاق المدفعية عليها ، عندئذٍ طلب الشريف زيد الصلح والأمان فأعطاه الأمان وعزله من منصبه^(٢) .

ولم يكن هذا التمرد هو نهاية المطاف ؛ حيث تمرد في السنة نفسها الشريف محمد بن أحمد بن حيدر، في وادي «بيش»، وجعل مقره قرية «الملحاح»، وواجه الشريف علي الموقف كعادته واتجه بجيشه إليها، وأمر بإحراق القرية، وأقام هناك أياماً، عندئذٍ طلب الشريف محمد ومن معه الأمان والصلح فوافق على ذلك^(٣) .

وقامت قبيلة «يام» سنة ١٢٣٨هـ بقيادة محمد بن حديش بالاستيلاء على قبلي مدينة «أبو عريش» - وحاصروهم الشريف مدة غير يسيرة ، لم تخل منها الاشتباكات ، وجرح فيها بعض الأشراف ، ولما اشتدت مدة الحصار طلبوا الأمان والصلح فوافق على ذلك، وتم الصلح والأمان ، واطمأن الناس بذلك .

وقد لوحظ أن الشريف زيد بن ناصر الذي عُفي عنه سابقاً ، قد قام متجهاً إلى

(١) المرجع السابق ، ٢٤٦ .

(٢) نفسه ، ٢٤٧ .

(٣) نفسه ، ٢٤٩ .

« صبيا » مرة أخرى لإثارة الفتنة ضد عمه الشريف علي الذي حاصره أياماً ، ولكنه عاد وطلب الصلح والأمان ، فأعطاه ذلك^(١) .

وبعد التطورات الأخيرة عين الشريف ابنه الحسين حاكماً على « صبيا » ومخلافها ، حتى لا يتكرر ما حدث سابقاً ، ولكن أهل « صبيا » تمردوا على الشريف الحسين سنة ١٢٤٠ هـ ، وحاصروه بقلعة « صبيا » في الوقت الذي كان فيه الشريف علي بن حيدر مشغولاً في قرية « الشقيق » للقاء حملة أحمد باشا الذي كان في طريقه لغزو عسير ، وبعد انتهائه من ذلك - عاد مسرعاً إلى « صبيا » ، واستعد الأهالي لمحاربته ، وجرت المفاوضات بين الطرفين ، واشتكوا من الشريف الحسين طالبين عزله ، واضطر للموافقة على طلبهم ، وأرجأ الانتقام منهم إلى أن يتفرغ لهم^(٢) .

وبعد أن هدأت الأمور قرر الشريف علي بن حيدر الانتقام من أهل « بيش » و « صبيا » على ما فعلوه ضده ، وأرسل لقبائل « يام » بنجران طالباً منهم التوجه إلى وادي « بيش » و « صبيا » والانتقام من الأهالي نظير ما فعلوه ضد ابنه الشريف الحسين ، وهاجم يام « صبيا » يوم ٢٢ صفر عام ١٢٤١ هـ ، وحدثت مقتلة كبيرة في أهاليها ، ثم فرض عليهم الشريف عقوبة مالية سنوية لقاء ما قاموا به ضده^(٣) .

لقد كانت المنطقة تعيش حالة من الفوضى والهرج بعد سقوط حكم الشريف حمود القوي على يد قوات محمد علي باشا ، ولعل في وصول الشريف علي بن حيدر إلى السلطة عن طريق الحراب العثمانية ما يدعو إلى قيام تلك الثورات ضده هنا وهناك ،

(١) المرجع السابق ، ٢٥٠ .

(٢) نفسه ، ٢٥١ .

وانظر أيضاً : دار الوثائق القومية - القاهرة : محفظة [٩] بحريرا ، وثيقة رقم ١٢١ ، من أحمد آغا إلى محمد علي

بتاريخ ١٣ ذي الحجة ١٢٤٠ هـ . انظر : عبدالرحيم عبدالرحمن . من وثائق شبه الجزيرة العربية ، ٣٥٥/١ .

(٣) عاكش . المرجع السابق ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ - ٢٥٥ .

يضاف إلى ذلك أن حكومة الباشا كانت في تلك الفترة مشغولة بتثبيت أقدامها في نجد والخليج العربي ؛ إضافة إلى قيام الثورة في عسير بقيادة سعيد بن مسلط ضد الباشا وقواته في المنطقة عام ١٢٣٨ هـ .

لقد نجحت ثورة عسير في هزيمة أحمد باشا - حاكم الحجاز - مما أدى إلى استتباب الأمور بعد عقد اتفاق بين الطرفين في شهر المحرم عام ١٢٤١ هـ^(١).

وتشير الوثائق إلى أن أمير عسير قد بدأ التطلع لمدّ نفوذه باتجاه إمارة «أبو عريش» ، ولذلك فقد حاول التدخل لإصلاح ذات البين بين الشريف وأهالي «صبيا» وأرسل في سبيل الوساطة رجلين من أتباعه لاستطلاع رأي الشريف في إمكانية إرسال أخيه سعيد مع ثلة من رجال عسير للنظر في الصلح ، إلا أن ذلك اعتبر تدخلاً من أمير عسير في شؤون المخلاف . وحينما علمت حكومة الحجاز بذلك فقد طلب أحمد باشا من أمير عسير عدم التدخل وسحب هذه الوساطة^(٢) .

ويبدو لنا أن أمير عسير بهذه الوساطة كان يحاول التدخل في شؤون المخلاف فعلاً؛ بل ويريد السيطرة على الجزء الشمالي منه ، وخاصة «صبيا» ومخلافها ، التي كانت تعد منطقة نزاع دائم بين الإمارات منذ عهد الشريف حمود أبو مسمار . وشجعه على ذلك طلب أهالي وادي «بيش» و «صبيا» مساعدته ضد الهجمات اليامية التي ألحقت بهم ألواناً من الأذى والهوان^(٣) .

وقد تلقى أمير عسير «علي بن مجثل» في مطلع عام ١٢٤٢ هـ رسالة من محمد بن

(١) علي عسيري . عسير ، ١٤٨ .

(٢) دار الوثائق القومية - القاهرة : محفظة [١٠] بحري ، وثيقة رقم ٦٨ رسالة موجهة إلى محمد علي بتاريخ ٩ ربيع الآخر ١٢٤١ هـ .

انظر : عبدالرحيم عبدالرحمن ، المرجع السابق ، ٣٧٧/١ .

(٣) علي عسيري . المرجع السابق ، ١٤٨ .

حسن بن خالد الحازمي ، يشرح له فيها الوضع في المخلاف السليماني ويطلب منه النزول إلى « صبيا » لضبط أمورها^(١) .

وبعد الحوازمة وهم من أهالي « ضمد » ممن يالئ أمير عسير نظراً للعلاقة السابقة بين الحسن بن خالد الحازمي وآل عائض في عسير .

وقد قام أمير عسير سنة ١٢٤٢ هـ بهجوم على « صبيا » محاولاً السيطرة عليها ، وإخراج حاميتها التركية منها ؛ ونتيجة لذلك فقد استنجد الشريف بأحمد باشا محافظ مكة ، وطلب إمداده بقوة عسكرية للوقوف أمام أطماع أمير عسير^(٢) ، وقام أحمد باشا بإرسال مساعدة عسكرية تتمثل في عدد من العساكر والطوبجية يبلغ عددهم حوالي سبعائة مقاتل^(٣) ، وقبل وصول القوة إلى « أبو عريش » كان الاتفاق قد عقد بين أمير عسير والشريف ، على أن يقوم الشريف بنقل الجنود الموجودين في قلعة « صبيا » إلى مكة خلال شهر .

وتشير الوثائق إلى أن أحمد باشا قد أخبر محمد علي باشا بالواقع حيث تقول الوثيقة : « وتذكرون في المكاتب الواردة أخيراً ، أن الشريف علي بن حيدر ، أرسل لكم مكاتبه يقول فيها : إن علي بن مجثل تلاقى معه في محل قريب من « أبو عريش » ، وعرض عليه الاتفاق فيما إذا نقل الجنود إلى مكة في خلال شهر ، وطلب منه إخراج رجاله من قلعة « رحبان » ، وأنه أمهله لغاية رجب »^(٤) ، وعاد أمير عسير منتظراً ومتربصاً .

(١) هاشم بن سعيد النعمي . تاريخ عسير ، ١٧٧ .

(٢) دار الوثائق القومية ، دفتر [٢] عابدين وثيقة رقم ٩٩ ، رسالة من محمد علي إلى أحمد باشا ، محافظ مكة بتاريخ ٢٢ شعبان سنة ١٢٤٢ هـ .

انظر : عبدالرحيم عبدالرحمن . المرجع السابق ، ٣٧٩/١ .

(٣) عاكش . المرجع السابق ، ٢٥٨ .

(٤) دار الوثائق القومية ، دفتر [٢] عابدين وثيقة رقم ١٠٩ ، رسالة من محمد علي باشا إلى أحمد باشا محافظ مكة بتاريخ ٣ رمضان سنة ١٢٤٢ هـ .

انظر : عبدالرحيم عبدالرحمن . المرجع السابق ٣٨١/١ .

وبعد وصول تلك القوة إلى الشريف توجه بها إلى «ضمد» لتأديب الحوازمة على موقفهم منه ولدورهم في معاضدة أمير عسير ضده ، ولما بلغ الحوازمة ذلك فروا ليلاً قبل وصوله ، وفي مقدمتهم السيد أحمد بن حسين والسيد محمد بن حسن بن خالد الحازمي ، واتجهوا إلى أمير عسير طالبين النجدة والمساعدة ضد الشريف ، وتوجه الأمير علي بن مجثل بجيشه إلى «صبيا» ، وكان بقلعتها الشريف حيدر بن ناصر عاملاً من قبل عمه الشريف علي بن حيدر ، وحاول الأمير الاستيلاء عليها ، واستعصت عليه لقوة المدافعين عنها ، وجنح الأمير بعد ذلك للمسالمة ، وأرسل الأموال إليهم لاستدراجهم ، وأخلوها له ، وعيّن أحد قواده ويسمى مغرم بن مشاري أميراً عليها ، وارتحل عائداً إلى السراة في شهر رمضان ١٢٤٢هـ^(١) .

وتشير الوثائق إلى أن محمد علي قد طلب من أحمد باشا محافظ مكة أن يبذل جهده لحل المسألة بالحكمة والسياسة نظراً لانشغال القوات المصرية في حروب المورة واليونان، وعدم إمكانية إرسال قوات إضافية إلى المنطقة لدعم الأشراف .

وعلى الرغم من ذلك فإن محافظ مكة قد قام بتدبير بعض القوات وإرسالها إلى الشريف ، ووصلت قوات الباشا لمساعدة الشريف ، واتجهوا لقلعة «صبيا» حيث كان موجوداً بها جنود من عسير ، وأطلقوا المدفعية ، وكادت تسوى القلعة بالأرض ، وطلب العسيريون الأمان والعفو عنهم ، ولبّى الشريف طلبهم ، ثم استولى على «صبيا» وعيّن عليها عاملاً من طرفه ، وعاد بعد ذلك إلى «أبو عريش»^(٢) .

وعندما علم الأمير علي بن مجثل بما حدث لقواته في «صبيا» حشد جيشه وتوجه إلى «أبو عريش» لقتال الشريف علي بن حيدر الذي استعد للمعركة ، وتوسط البعض للصلح بين الطرفين ، ورأى الشريف علي بن حيدر بخبرته السياسية الموافقة على الصلح،

(١) عاكش . المرجع السابق ، ٢٥٩ .

(٢) هاشم النعمي . المرجع السابق ، ١٧٨ .

ودارت المفاوضات ، واتفق فيها الطرفان على عودة « صيبا » ومخلافها إلى الأمير العسيري علي بن مجثل ، ومن ثم عاد الأمير إلى بلده^(١) .

وفي مطلع عام ١٢٤٣ هـ تحرك الأمير العسيري باتجاه المخلاف السليمان مرة أخرى ، ولانجذب في المصادر التي بين أيدينا ما يشير إلى سبب تلك الحملة على عاصمة المخلاف « أبو عريش » ، ولعله كان يحاول السيطرة عليها ، أو يحصل على الأقل على وعد من الشريف بإخراج القوة العثمانية الموجودة لديه وإعادتها إلى الحجاز ، حيث إن تلك القوة تمثل هاجساً يقلق إمارة عسير الثائرة ضد حكم الباشا والدولة العثمانية .

والتقى الطرفان في مكان ما شمال « أبو عريش » ، واستعد الشريف لملاقاة خصمه ، مستعيناً بالقوة العثمانية الموجودة لديه ، ووضع المدافع في مقدمة الجيش واستعد للقتال ، وتوسط البعض بين الطرفين ، ولعلَّ أمير عسير حينما رأى استعداد الشريف ومدى القوة الموجودة لديه ، رأى أن المواجهة قد لا تكون في مصلحته فاكتمل بتأكيد الاتفاق السابق ، وهو استمرار السيطرة العسيرية على « صيبا » ومخلافها ، وقام بتعيين محمد بن حسن بن خالد الحازمي أميراً عليها وعاد إلى بلاده^(٢) .

وانطلاقاً من مبدأ التبعية للحكومة الحجاز فقد قام الشريف بتنظيم جيشه بطريقة معاصرة ، منظماً إياهم بالزبي الإفرنجي^(٣) ، ورتب أمورهم في السلم والحرب مستعيناً في ذلك بالقوات التي أرسلها محمد علي ، التي تسمى « الحمران » ، وكان فيها جماعة من الفرسان المغاربة^(٤) ، وقد لوحظ اشتراك المغاربة في القوات العثمانية على أساس أنهم من رعايا الدولة العثمانية ، ولهم مؤثرات اقتصادية واجتماعية في الشرق العربي^(٥) ، ويذكر

(١) عاكش . المرجع السابق ، ٢٦١ .

(٢) عاكش . المرجع السابق ، ٢٦٤ .

(٣) عاكش . المرجع السابق ، ص ٢٦٥ ؛ محمد أحمد العقيلي . تاريخ المخلاف السليمان ، ٥٠٧/١ .

(٤) انظر بهذا الخصوص : عبد الرحيم عبدالرحمن . المغاربة في مصر في العصر العثماني .

«عاكش» أن الشريف قد استغنى بهذه القوات عن القوات المرتزقة التي كان يستأجرها من «همدان» و «يام» وغيرهم^(١).

وعمل الشريف علي بن حيدر على توطيد علاقاته بمحمد علي باشا ، وكان وسيطه في ذلك أحمد باشا محافظ مكة المكرمة ، واستمر الشريف في الدعاء للسلطان العثماني على منابر المساجد ، مبرراً ذلك للمقربين إليه أن الانتماء إلى العثمانيين ومحمد علي لم يكن عن رغبة أكيدة في نفسه ، وإنما رغبة في الاستفادة منهم ضد هجمات أمير عسير المتتالية على إمارته^(٢).

واستتب الوضع حتى عام ١٢٤٦هـ حينما قام علي بن مجثل بغزو تهامة اليمن متجاوزاً إمارة «أبو عريش» إلى أن وصل قرية «دوغان» من بلاد «صليل» ، حيث يوجد فيها قلعة بناها الشيخ إبراهيم بن علي الكلفود ، الذي كان قد تمكن من تكوين قوة خاصة به قوامها العديد من الأتباع والعبيد ، واستباح لنفسه والتابعين له القبائل المجاورة الأخرى وعاث فيها فساداً ، واستولى علي بن مجثل على قلعته وخربها ، وعيّن عليها الشريف حسن بن بشير بن محمد بن أحمد بن خيرات عاملاً من طرفه ، حيث اتخذ من قرية «مور» مركزاً لإقامته^(٣) ، وعاد ابن مجثل بعد ذلك إلى عسير .

ومهما كانت الأسباب التي أبداها أمير عسير في سبيل الاستيلاء على بلاد «صليل» واتخاذ الكلفود سبباً لتلك الحملة ، فإن هناك سبباً رئيساً كان يحاول إخفاؤه ، وهو محاولة تطويق الشريف من الجنوب ، وإيجاد موطئ قدم له يساعده على الانقضاض على «أبو عريش» في الوقت المناسب ؛ حيث كان يتحين الفرص المناسبة لذلك ويتكئ على بعض الحوادث والمستجدات لتبرير حملاته المتتالية على تهامة .

(١) عاكش . المرجع السابق ، ٢٦٦ .

(٢) عاكش . المرجع السابق ، ٢٦٦ .

(٣) عاكش . المرجع السابق ، ٢٧٠ - ٢٧٣ : العقيلي . المرجع السابق ، ٥٠٧/١ .

وحدث بين الشريف حسن بن بشير - العامل من قبل ابن مجثل - والشريف الحسين ابن علي - والمعين من قبل والده علي « الزهراء » - نزاع بسبب مساقى الماء ، وبذل أعيان الناس مساعيهم لاحتواء الموقف ، ولكنها فشلت ، وحدث القتال وأدى لقتل أحد رجال علي بن مجثل^(١) .

وعندما علم علي بن مجثل بذلك ، أرسل في عام ١٢٤٨ هـ بعض قواته بقيادة رجل يدعى مُريّج ، وكان في الظاهر يعمل على إصلاح الأحوال بين الطرفين ، والواقع أنه كان يؤيد الشريف حسن بن بشير ، في موقفه ضد الشريف الحسين بن علي ، وعندما استقر مُريّج في « مور » ، سرّ الشريف الحسين بن علي بذلك ، وخاطبهم بالرسائل ، ولكنهم أعلنوا قرارهم بإدانة الشريف الحسين ، وأيقن الشريف أن الحرب آتية لارب فيها ، واستعد الجميع للمعركة ، واتجه الشريف بجنوده إلى قرية « اللجام » ، وبدأت المعركة ، وانتصر الشريف الحسين وقتل مُريّج ، وعاد الشريف إلى « الزهراء » وأخبر والده بذلك^(٢) .

وعندما علم الأمير علي بن مجثل بذلك ، قرر الاستيلاء على تهامة ، وخرج بجيشه حتى وصل إلى « صيبا » ، واستقر بها لترتيب أموره استعداداً لحصار « أبو عريش » ، وتدخل أحمد بن إدريس المغربي^(٣) للصلح ، ولم ينجح في ذلك ، ولما علم الشريف علي بن حيدر بقدوم الأمير ، أحرق المدينة وحشد جنوده واتجه إلى « الديرة » وتحصن بها ، وانضم إلى الأمير علي بن مجثل أشرف قرية « البيض » ، وعسكر في غربي « أبو عريش » ، عندئذ أطلق الشريف علي بن حيدر مدفعيته المتصلة ، وقتل الكثير من جنود الأمير علي بن مجثل .

(١) عاكش . المرجع السابق ، ٢٧٨ ؛ العقيلي . المرجع السابق ، ٥٠٨/١ .

(٢) عاكش . المرجع السابق ، ٢٧٩ - ٢٨٢ .

(٣) صاحب الطريقة الأحمدية المشهورة . هاجر من المغرب إلى مكة المكرمة ، واستقر بها حوالي ثلاثين سنة ، ثم انتقل إلى تهامة اليمن ومنها إلى صيبا عام ١٢٤٥ هـ واستقر بها ، وكان له فيها مكانة كبيرة وعدد من المريدين والأتباع . توفي عام ١٢٥٣ هـ ، وكان له مقام يزار بعد وفاته حتى هدم بعد ضم منطقة جازان إلى الدولة السعودية الحديثة في عهد الملك عبدالعزيز رحمه الله .

انظر لمزيد من التفصيل عن حياته وآرائه وطريقته : عاكش . عقود الدرر ٧٤/١ ؛ حقائق الزهر ١١٩ .

واستطاع الشريف بمساعدة الحامية التركية الموجودة لديه أن يصد هجوم رجال عسير وإجبارهم على التراجع ، وفك الحصار . يقول عاكش في وصف المعركة : « وطال ما بين الرعيلين التشاجر بأطراف الرماح ، والتصافح بأكف الصفاح ، وانتهى الأمر أن قهرت بآخر المعركة العصابة الحسنية وتولت طائفة الخيل النجدية ... ولما وصلوا مطرحهم وهم بين قتيل وجريح ، وداعى الردى بين خيامهم يصيح ، وبات الأمير في ليلة نابغية وأحزان يعقوبية ؛ لأنه تحقق أنها قد انكسرت سورة الأجناد ، ومع الحاصل فيهم لا يبلغ بهم المراد »^(١) .

واستغل ابن مجثل مرور تركجة بيلمز^(٢) الشائر ضد محمد علي في الحجاز في طريقه إلى اليمن ، ورأى في وجود هذا الشائر الذي يملك السفن والأسلحة والعساكر النظامية فائدة له ولقوات عسير ، وتم الاتفاق بين الطرفين على التعاون في المجال الحربي ، وعلى أن تكون الفتوحات باسم علي بن مجثل أمير عسير^(٣) .

وبناءً على هذا الاتفاق أعاد أمير عسير الكرّة على « أبو عريش » وتوسط البعض للصلح ، وتم الاتفاق بالشروط الآتية^(٤) :

(١) عاكش . الديباج الحسرواني ، ٢٨٣ - ٢٨٧ .

(٢) تركي بيلمز هو لقب قائد ثورة الجنود غير النظاميين في الحجاز ، واسمه الحقيقي محمد آغا ، وقد قام بثورته ضد محمد علي باشا في مطلع ١٢٤٨ هـ ، بسبب تأخر مرتبات الجنود لمدة تزيد على عشرة أشهر نظراً لانشغال محمد علي في حروب الشام ، وقد مرت الثورة بعدة مراحل في جدة ومكة والمدينة المنورة ، وزاد في حدتها تشجيع السلطان محمود الثاني للثوار ضد محمد علي باشا .. وعندما أرسل محمد علي باشا قوة ضخمة بقيادة أحمد باشا يكن إلى الحجاز نقل قادة الثورة حركتهم باتجاه اليمن نظراً لخبرتهم بالمنطقة أثناء حروب محمد علي باشا ضد عسير ، وقد تصادق تركجه بيلمز مع علي بن مجثل مؤقتاً وسيطر على الساحل اليمني إلى المخا ، ولما ظهرت منه أفعال تدل على فساد وعدم انضباطه قام علي بن مجثل بقيادة قوة من عسير تمكنت من مهاجمة بيلمز وقواته في المخا ، وقضى عليهم ، وفرّ بيلمز وبعض أعوانه على ظهر باخرة إنجليزية إلى بومباي ثم إلى البصرة ، حيث واصل نشاطه المضاد من هناك .

انظر : عبدالرحيم ، محمد علي باشا وشبه الجزيرة العربية ١٧١/٢ - ١٩١ : أباطة . الحكم العثماني في اليمن ، ٣٩ : - Play fair , Ahistory Arabia Felix , 141 - 144 .

(٣) علي عسيري . المرجع السابق ، ١٥٤ .

(٤) العقيلي . المرجع السابق ، ٥٠٨/١ .

أ - أن تحتل مدينة «أبو عريش» بحامية عسكرية عسيرة ، في قلعته المسماة بدار النصر ، وعُيِّن عليها الأمير عائض بن مرعي قائداً لها .

ب - أن يرحل الأمير علي بن حيدر الجنود الأتراك إلى الحجاز .

ج - أن يبقى علي بن حيدر في الإمارة ككاتب ، ويشير العقيلي إلى أن علي بن مجثل لم يف بالشرط الثالث بل استولى على البلاد كلياً^(١) .

وبعد وفاة علي بن مجثل انتقلت الإمارة إلى عائض بن مرعي ، واستغل الشريف علي بن حيدر هذا التغيير في إمارة عسير ، وأعلن استقلاله عن عسير وإلغاءه للاتفاقية المعقودة بين الطرفين ، زاعماً أن أمير عسير لم يلتزم بشروطها . يقول مؤرخنا عاكش وهو معاصر للأحداث : «... ولما كان الأمير علي بن مجثل لم يف للشريف علي ابن حيدر ، بما وقع عليه الصلح الذي كان، وعامله بما لا يليق بمقامه العظيم الشأن ، واستولى على القطع والحقوق ، ولم يبق لنفاق الشروط عنده سوق ، رأى أنه بموته قد برئ من العهد ، ولا يرضى أن يدخل بعده تحت طاعة أحد»^(٢) .

وأرسل أمير عسير إلى الشريف وفداً لأخذ البيعة وتأكيد العهد دفعاً للحرب وما تجره من ويلات على الطرفين ، ولكن الشريف رفض ، ورجع الوفد دون أي نتيجة تذكر^(٣) . هنا قرر أمير عسير النزول إلى تهامة ، وتقدم بجيوشه إلى هناك في شهر ذي القعدة سنة ١٢٤٩ هـ ووصل إلى «صبيا» حيث رتب جنوده ورسم خطته وتقدم إلى «أبو عريش» وحاصرها ، ويذكر عاكش : «أن معظم أهل «أبو عريش» كانوا مماليك لابن عائض ضد الشريف»^(٤) ، وفي هذا إشارة ذات مغزى إلى استياء الناس من حكم الشريف ورغبتهم في البديل المناسب .

(١) العقيلي . المرجع السابق ، ٥٠٨/١ .

(٢) عاكش . الديباج الحسرواني ، ٢٩٩ .

(٣) هاشم النعمي . المرجع السابق ، ١٩٦ .

(٤) عاكش . الديباج الحسرواني ، ٣٠١ .

وقد تخلف الشريف علي بن حيدر عن قيادة قوات الدفاع لمرض أصابه ، وخرج بدلاً منه الشريف يحيى بن أبي طالب ، والتقى مع فرسان عسير بقيادة محمد بن حسن بن خالد ، ودارت معارك بين الطرفين انتهت بهزيمة قوات عسير.

أيقن الأمير عائض بن مرعي بصعوبة الاستيلاء على «أبو عريش» فقرر الانسحاب والعودة إلى بلاده في العاشر من ذي الحجة من العام نفسه^(١).

وكان الشريف قد أرسل إلى أحمد باشا محافظ مكة يطلب المساعدة للوقوف أمام القوات العسيرية ، ووصل إليه مجموعة من الجنود بعد انسحاب الأمير عائض إلى السراة ، وتمكن الشريف بمساعدة هذه القوة من إخراج الحامية العسيرية من «أبو عريش» ، والتي كانت بقيادة مغرم العسيري ، ثم توجه إلى «صبيا» ، وكان فيها السيد محمد بن حسن الحازمي عاملاً لأمير عسير ، والذي لم يستطع الوقوف أمام قوات الشريف ، فطلب الأمان وأخلى المدينة من رجال عسير المرابطين في قلاعها ، وعادوا إلى السراة ، وهناك توفي محمد بن حسن الحازمي بعد مدة قصيرة^(٢).

وهنا أصبح الشريف يسيطر على المخلاف السليماني دون منافس ، ولم يبق خاضعاً لعائض بن مرعي سوى المناطق الواقعة شمالي بلدة «الدرب» ؛ بالإضافة إلى الموانئ الساحلية اليمنية التي سبق أن استولى عليها علي بن مجثل قبل وفاته أثناء ثورة (تركجه بيلمز) ، حيث أقام فيها حاميات عسيرية^(٣) ، وهي تمتد من «الزيدية» إلى «المخا»^(٤).

إلا أن سيطرة عسير على الموانئ اليمنية لم يمتد طويلاً ، فقد كان محمد علي باشا يتطلع إلى الاستيلاء عليها حيث ظهرت أهميتها بالنسبة للحجاز ومصر ، واتضحت

(١) هاشم النعمي . المرجع السابق ، ١٨٦ .

(٢) عاكش . الديباج الحسرواني ، ٣٠٣ .

(٣) علي عسيري . المرجع السابق ، ٢٩٨ .

(٤) عاكش . المرجع السابق . ٣٠٥ .

الأطماع الاستعمارية في البحر الأحمر ؛ إضافة إلى أن هذه الموانئ كانت تشكل خطاً إستراتيجياً مهماً لكل من عسير ومحمد علي والدولة العثمانية^(١) .

وقد شجعت هزيمة عائض بن مرعي على أسوار « أبو عريش » محافظ مكة - أحمد باشا - بالتنسيق مع محمد علي باشا - والي مصر - على إرسال حملة عسكرية بقيادة محمد أمين وصلت إلى المخلاف السليماني في مطلع عام ١٢٥٠ هـ ، ومعها تعليمات بأن يصحب الشريف الحسين بن علي بن حيدر هذه الحملة في مهمتها الرامية إلى الاستيلاء على الموانئ اليمنية ، وإخراج القوات العسيرة المرابطة فيها وبسط سيادة الباشا على تلك النواحي^(٢) .

وسارت الحملة بحراً وبراً حتى وصلت الحديدة وحاصرتها ، واستسلمت الحامية العسيرة فيها بقيادة محمد بن مفرح المغيدي ، وسقطت الموانئ والمدن الساحلية اليمنية تباعاً ، ولم يستطع أمير عسير تقديم أية مساعدة تذكر لحامياته هناك ؛ وذلك بسبب وجود إمارة « أبو عريش » بين عسير وتلك الموانئ مما يجعل وصول الإمداد إلى تلك الحاميات في حكم المستحيل ، إضافة إلى المعلومات المتواترة التي وصلت إلى أمير عسير بالتجهيزات الخاصة بحملة محمد بن عون المباشرة على عسير^(٣) .

وعندما تمت السيطرة على اليمن ، أرسل محمد أمين قائد الحملة تقريره إلى محمد علي باشا والي مصر يبلغه بنجاح المهمة ، حيث أصدر قراره بتعيين إبراهيم باشا^(٤) حاكماً على اليمن ، وتقدم بجيشه بحراً حتى وصل إلى « القنفذة » ، ومنها إلى بلاد السراة ، وسلك طريقاً صعباً إلى قرية « الشعبين » ، وقاتله الأهالي وتمكنوا من قتل بعض جنوده

(١) علي عسيري . المرجع السابق ، ٢٩٩ .

(٢) العقيلي . المرجع السابق ، ٥٠٩/١ .

(٣) علي عسيري . المرجع السابق ، ٣٠٠ .

(٤) يقال : إنه ابن أخت محمد علي باشا .

وأسر البعض الآخر ، فانسحب بمن بقي معه ورجع بهم إلى «القنفذة» متجهاً إلى «الحديدة» بحراً ، ودخلها في عصر يوم الخميس رابع جمادى الأولى سنة ١٢٥١هـ ، وقابله الشريف الحسين ومحمد أمين ، وأعلن القرار الخاص بجعله والياً على اليمن ، واتخذ «الحديدة» عاصمته ، ووزع جنوده في أنحاء البلاد^(١) .

وبالنسبة للموقف في اليمن بعد خضوعه لسيطرة محمد علي باشا ، فقد أمر محمد أمين بالعودة إلى مكة ، وكان الشريف الحسين يتطلع إلى تعيينه حاكماً على اليمن ، ولكن شيئاً من ذلك لم يتم ، وعاد إلى «الزهران» ، وقرر له محمد علي معاشاً شهرياً من حاصلات «اللحية» ، وتفرغ بعد ذلك للدراسة والمذاكرة مع أهل العلم والأدب^(٢) .

واستقرت الأحوال في تهامة اليمن ، ولكن قبيلة «يام» كعادتها كانت تطمع في الاستيلاء على بعض الغنائم ، ففي أواخر عام ١٢٥١هـ نزلوا بقواتهم إلى وادي «بيش» ، وانزعج إبراهيم باشا لذلك ، فأصدر أوامره للشريف الحسين بقيادة الجنود العثمانيين لصددهم والوقوف أمامهم ، واتجه الشريف إلى «أبو عريش» يستأذن والده .

ويذكر عاكش أن الشريف علي بن حيدر لم يكن راضياً عن تلك الحملة حيث يقول : «واستمد الإذن من والده ، ورُبَّما لم يحمد ذلك الفعال ، لكون هذه الفئة جندهم عند اصطدام البلايا ، وكم قد تجلت بهم لهم ولسلفهم من رزايا»^(٣) .

واتجه الحسين من «أبو عريش» إلى «صبيا» ، وعلم أنهم - يام - قد استولوا على قرية «العداية» ، وبحث الموقف ، وقرر مفاجأتهم بالهجوم ، واستغل الأسلحة الحديثة والتنظيم الجيد للجيش الذي يقوده ، وألحق بقبائل يام هزيمة منكرة ، وعاد إلى «صبيا» ومن ثم إلى «أبو عريش» ، حيث تغنى الشعراء بانتصاره^(٤) .

(١) عاكش . الديباج الحسرواني ٣١٨ - ٣٢٠ ، العقيلي . المرجع السابق ، ٥٠٩/١ .

(٢) عاكش . الديباج الحسرواني ٣٢١ . العقيلي . المرجع السابق ، ٥٠٩/١ .

(٣) عاكش . الديباج الحسرواني ، ٣٢٢ ، العقيلي ، مرجع سبق ذكره ، ٥٠٩/١ .

(٤) عاكش . الديباج الحسرواني ، ٣٢٣ .

وتجدر الإشارة إلى أن الحالة الصحية للجنود التابعين لمحمد علي في اليمن قد ساءت نظراً لسقامة الجو ، واقترح إبراهيم باشا توفيق - سر عسكر اليمن - نقلهم من « أبو عريش » و « صبيا » ، وإحلال الجنود الحضارمة بدلاً منهم ، واستدعى الشريف الحسين، وتشاور معه في الأمر ، واتفقا ، وبلغ ذلك للشريف علي بن حيدر ، ووافق الشريف على نقل الأورطة الأولى إلى « الحديدة » ، وإبقاء الأورطة الرابعة لحماية قلعتي « أبو عريش » و « صبيا »^(١) .

وتشير الوثائق إلى أن الشريف علي بن حيدر كان يتوقع هجوماً وشيكاً على إمارته يقوم به أمير عسير بالتحالف مع قبائل يام ، وأدى ذلك إلى طلب تأجيل نقل الجنود من « أبو عريش » و « صبيا »؛ بل وتوالت رسائل الشريف إلى كل من أحمد باشا - محافظ مكة - وإبراهيم باشا - سر عسكر اليمن - بطلب دعم الحامية الموجودة لديه ، وبخاصة أن الفرسان الموجودين في « أبو عريش » ليس منهم إلا مائتا فارس والباقي لا يستطيعون قياماً ولا قعوداً^(٢) .

وقد كان موقف أحمد باشا أكثر تحمساً لدعم الشريف ، ويقول في رسالة إلى إبراهيم باشا - سر عسكر اليمن - : « وقد كنت كتبت في ٢٩ المحرم سنة ١٢٥٣ هـ، إلى الشريف المشار إليه، وبيننا لكم أننا مطلعون على اتفاق الأشقياء وإقدامهم على ارتكاب الأعمال السقيمة ، وأننا نعلم تفاصيل أفعالهم الخبيثة، لأن جواسيسنا يغدون ويروحون في كل مرة ... »^(٣) .

(١) دار الوثائق القومية ، محفظة [٢٦٢] عابدين . وثيقة رقم ٨٨ حمراء ، رسالة من إبراهيم توفيق إلى المعية السنية بتاريخ ٦ صفر ١٢٥٣ هـ .

انظر : عبدالرحيم عبدالرحمن . المرجع السابق ، ٤٠٢/١ .

(٢) الوثيقة السابقة .

(٣) محفظة [٢٦٢] عابدين . وثيقة رقم ٨٨ حمراء ، رسالة إلى إبراهيم باشا سر عسكر اليمن بتاريخ ٢١ صفر سنة ١٢٥٣ هـ .

ويعاتب محافظ مكة - أحمد باشا - سر عسكر اليمن - إبراهيم باشا - على تأخر الجواب على رسالتيه السابقتي الذكر حتى يُمكن اتخاذ اللازم في وقته.

وقد قرر أحمد باشا محافظ مكة المكرمة إرسال قوة إلى «أبو عريش» مكونة من ثلاث أوط من آلاي المشاة السابع ، وأوططة من الآلاي الثالث والعشرين ، وتم تجهيز القوارب في ميناء جدة ريثما يصدر الأمر الأخير، نظراً لرداءة الجو في «أبو عريش» وما جاورها، وعدم التأكد من قيام عسير بالهجوم المرتقب .

«... إلا أنه لما لوحظ أن الجو سقيم في تلك الديار ، وأن الجنود عرضة للأمراض ، وأن مواضع مهاجمة العدو لاتزال مجهولة لعدم انتقالهم من أماكنهم ، رُئي وقف العساكر وإسكانهم بجدة حتى يتبين الجهة التي يساقون إليها ، فيرسلون محمولين على القوارب ...»^(١) .

وكإجراء عاجل فقد وافق محافظ مكة على دعم الفرسان الموجودين في «أبو عريش» بقوة من فرسان المغاربة المقيمين في مكة المكرمة ، وأمر بترحيلهم خلال خمسة أيام من تاريخ خطابه إلى إبراهيم باشا المؤرخ في ١٢ صفر سنة ١٢٥٣هـ^(٢) .

وعلى الرغم من هذا الاهتمام والتوقع ، إلا أن عسير ويا لم يقوموا بأي هجوم على المخلاف السليمانى خلال تلك الفترة ، ولعل السبب في ذلك أن أمير عسير كان يجهز جيوشه فعلاً، ولكن ليس للانقضاض على إمارة «أبو عريش» ، وإنما للاستيلاء على غامد وزهران ، وأطلق في سبيل ذلك الإشاعات لإيهام القوات المرابطة في الحجاز بأن جهة الهجوم المرتقب هي «أبو عريش»^(٣)، وذلك لإرباك خصمه وتشتيت قواته ، ولعل

(١) دار الوثائق القومية (محفظة رقم {٢٦٢}) عابدين . وثيقة رقم ٨٨ حمراء ، رسالة إلى إبراهيم باشا سر عسكر اليمن بتاريخ ٢١ صفر سنة ١٢٥٣هـ . انظر : عبدالرحيم عبدالرحمن . المرجع السابق ، ٤٠٣/١ .

(٢) الوثيقة نفسها .

(٣) الوثيقة رقم ١٤٤ ، فقرة {٣٨٧} رسالة من أحمد شكري إلى محمد علي بتاريخ ٣ شوال ١٢٥٣هـ . انظر : عبدالرحيم عبدالرحمن . المرجع السابق ، ٤١٣/١ .

أحمد باشا قد أدرك ذلك ، فلم يرسل القوات من جدة بل تركها تقيم هناك على أهبة الاستعداد فقط.

وفي جمادى الأولى من سنة ١٢٥٣ هـ قام أمير عسير على رأس جيش كثيف إلى غامد وزهران وسيطر عليها وأضافها إلى إمارته^(١) .

ويشير الأستاذ علي عسيري إلى أن الشريف علي بن حيدر كان يوهم محمد علي بوجود تحالف بين يام وعسير ، مع أن العداء بينهما كان كبيراً ، وأنه من المستبعد أن يقوم تعاون مباشر بين يام وعسير^(٢) . إلا أنني أرى أن التعاون بين أمير عسير ويام وارد لعدة أسباب :

- ١ - أن قبائل يام كانت تقوم بدور الجنود المرتزقة ، وقد استفاد منها أشراف «أبو عريش» أكثر من مرة ، فما الذي يمنع أمير عسير من استخدامها والاستفادة منها .
 - ٢ - أن قوات عسير كانت في مواجهة مباشرة مع قوات محمد علي في أكثر من جهة ، في «غامد» وزهران ، وفي «القنفذة» وما صاحبها ، وفي «أبو عريش» و«صبيا» ، وهذا يدعو إلى ضرورة الاستعانة بقبائل يام لإضعاف الخصم في «أبو عريش» .
 - ٣ - أن أمير عسير قد حاول الاستيلاء على «أبو عريش» في العام السابق ، وفشل في السيطرة عليها وعاد خائباً ؛ ولذلك فإن قيام قبائل يام بالمهمة بدلاً عنه ، أو بالتعاون مع جنوده لصالحه ، يعد مكسباً إستراتيجياً .
- وليس بالضرورة أن يكون ذلك تحالفاً بقدر ما يكون رغبة لدى أمير عسير، ولعله أوحى إلى يام برضاه عن ذلك ، أو أرسل إليهم من يشجعهم على القيام بتلك المهمة الصعبة في المخلاف السليمانى، بهدف إشغال الخصم، ولللاطمثان بعدم الهجوم على قاعدته أثناء غيابه في حملته على غامد وزهران كما ذكرنا آنفاً .

(١) هاشم النعمي . المرجع السابق ، ١٩٣ .

(٢) علي عسيري . المرجع السابق ، ٣٠٤ .

وكانت وفاة الشريف علي بن حيدر كما يذكر عاكش في يوم الثلاثاء الخامس عشر من شهر جمادى الآخرة عام ١٢٥٤هـ^(١) ، وقد عثرت على وثيقة في أرشيف رئاسة الوزراء العثماني بإستانبول مؤرخة في ١٧ شوال ١٢٥٣هـ فيها إشارة إلى وفاته^(٢) ، ولعل عاكشاً قد وهم في السنة فوضع الوفاة في أحداث عام ١٢٥٤هـ وهي كانت في العام الذي سبقه .

ونستطيع أن نختم هذا المبحث بالقول إن إمارة «أبو عريش» خلال فترة حكم الشريف علي بن حيدر كانت خاضعة كلياً لمحمد علي باشا وحكومة الحجاز ، وقد أشار إلى ذلك المؤرخ المحلي عاكش بقوله : «... وهذا الشريف علي يعتزي في الظاهر إلى محمد علي باشا ، ولم تزل المكاتبه بينه وبينه دائرة بواسطة صاحب مكة أحمد باشا ، والأمور فيما بينه وبينهم جميلة ، والخطبة يعلن بها في المنابر للسلطان من آل عثمان ، واستغنى بهؤلاء الأجناد في حفظ البلاد عن غيرهم من همدان ، وقد حدثني من أتق به عن الشريف أنه ذكر له ما معناه أن المصاحبة للأتراك والاعتزاء إليهم لم يكن عن رغبة أو جهل بحقيقة ما هم عليه من الأمور الجارية على غير قوانين الشريعة ولله القائل :

وقد يتزيا بالهوى غير أهله ويستصحب الإنسان من لا يلائمه

لكن مع انفتاح فتنة أهل السراة عليه ، وسعايتهم فيما يعود ضرره إليه ، وعدم مراعاتهم لحرمة لو قدروا ، فما يرى يسعه إلا المصاحبة لمن ذكر ليدفع به شر هؤلاء...»^(٣) .

وفي هذا النص إشارة إلى تملل المجتمع المحلي ورفضه لوجود حاميات محمد علي باشا والخضوع لسلطانه . ويؤيد ذلك حركات التمرد المتوالية ضد الشريف في «صبيا»

(١) عاكش . الديباج الحسرواني ، ٣٣٨ .

(٢) خط هيايون . وثيقة رقم : E/٢٠٥١٧ وتاريخ ١٧ شوال ١٢٥٣هـ ، أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول .

(٣) عاكش . الديباج الحسرواني ، ٢٦٧ .

و«ضمد» و «الحسيني» و «الملح» وغيرها ، وهي من المواقع المهمة التي يعيش فيها عائلات ذات نفوذ وسلطة ومعظمهم من الأشراف، وقد كانت هذه الأسر على اتصال وثيق بإمارة عسير المناوئة لحكومة الحجاز العثمانية ، ولعلنا نستطيع القول هنا : إن أشراف المخلاف السليماني لم يكونوا جميعاً متفقين على وجود القوات العثمانية في المنطقة ، وما اتصالحهم المستمر مع إمارة عسير المناوئة للأتراك إلا دليل واضح على هذا التوجه .

وقد استمرت إمارة «أبو عريش» تابعة لمحمد علي باشا حتى بعد وفاة الشريف علي بن حيدر ومطلع حكم ابنه الشريف الحسين وحتى خروج قوات الباشا من السواحل اليمنية وإمارة «أبو عريش» في أواخر شهر صفر ومطلع ربيع الأول سنة ١٢٥٦ هـ حيث دخلت في مرحلة جديدة من الاستقلال المؤقت ثم التبعية العثمانية كما سنرى في المبحث الثاني .

ثانياً : وصول الشريف الحسين إلى الحكم وأزمة «هذا» :

أحكم محمد علي باشا - كما أسلفنا - سيطرته على إمارة «أبو عريش» وأخضعها بشكل مباشر لسلطته وأسند إدارة الأمور فيها إلى إبراهيم باشا مرتبطاً بالحاكم العام في الحجاز .

وفي الوقت نفسه كان الشريف الحسين بن علي بن حيدر يمثل الحاكم المحلي للإمارة بصفته الوريث الشرعي لها بعد وفاة والده في ١٥ جمادى الآخرة ١٢٥٤ هـ ، ومن ثم استدعاه والي اليمن إلى الحديدة ، وأصدر قراراً بتعيينه حاكماً مكان والده ، وبدأ يمارس أعماله، وبخاصة فيما يتعلق بشؤون القبائل ، وتنقل هنا وهناك بين «الزهران» و«الحديدة» و «أبو عريش» لتنظيم شؤونها، ومناقشة الباشا فيما يراه مناسباً لإدارة شؤون الإمارة^(١) . وأخذ الشريف الحسين يعد ذلك في توطيد مركزه وتقوية نفوذه ، ممّا جعل إبراهيم باشا ، ينظر إلى تصرفه بعين القلق والارتباب ، وأدّى إلى توتر العلاقات بينهما، وانتهت

(١) عاكش . الديباج الحسرواني ، ٣٤١ .

إلى العداء السافر ، وكان الخلاف الذي وقع بين والي الحجاز المصري من ناحية ، وشريف مكة محمد بن عون من ناحية أخرى ، بالإضافة إلى انشغال محمد علي باشا والي مصر بالأعمال الحربية في سوريا وفلسطين قد شجع الشريف الحسين على الوقوف ضد سياسة والي اليمن العثماني إبراهيم باشا يكن ، الذي بدوره جهّز حملة لتأديب الشريف الحسين وإخضاعه^(١) .

ونتيجة لهذا الوضع المتوتر بين الشريف والقائد التركي ، قرر الشريف الاستعانة بعدوه القديم - أمير عسير - ضد الأتراك^(٢) ، ولعل السبب الذي دفعه إلى ذلك هو أن أمير عسير كان المناوئ الرئيسي للأتراك في المنطقة ، إضافة إلى مطالبته المستمرة بإجلاء الجنود الأتراك والمصريين من «أبو عريش» وغيرها من المدن الساحلية .

وعقد اتفاق بين الطرفين في أواخر عام (١٢٥٥هـ) تقرر فيه ما يلي :

- ١ - يتعهد الأمير العسيري بإرسال عون حربي إلى «أبو عريش» عند الحاجة.
 - ٢ - يقدم أمير «أبو عريش» مبلغاً سنوياً إلى أمير عسير لقاء هذه المساعدة^(٣) .
- ولتحقيق بنود هذه الاتفاقية فإن أمير عسير قد طلب من الشريف أن يبعث إليه ابنه ليبقى رهينة عنده كدليل على ثباته وصدقه ، ووافق الشريف على ذلك ، وأرسل ابنه محمداً وابن أخيه الشريف علي بن محمد ، وعندما علم مصطفى باشا - محافظ «أبو عريش» - بنبأ هذا الاتفاق تحصن في القلعة ، وشاع بين الناس أنه يريد منع الشريف من دخول «أبو عريش» بعد عودته من حملته التأديبية ضد قبائل الحرث والخميسين^(٤) .
- ولتطبيق بنود الاتفاقية السابقة ، أرسل أمير عسير قوة حربية قوامها ألف مقاتل

(١) عاكش . المرجع السابق ، ٣٤٣ . العقيلي . المخلاف السليماني ٥١٠/١ .

(٢) محفظة ٩٦٢ عابدين . نمرة (٧) أصلية (١٧٧) حمراء ، بتاريخ ٧ صفر ١٢٥٦ من أحمد شكري إلى محمد علي باشا .

(٣) هاشم النعمي . تاريخ عسير ، ١٩٤ .

(٤) عاكش . المرجع السابق ، ٣٤٥ . العقيلي . المرجع السابق ٥١٠/١ . وانظر أيضاً : الوثيقة رقم [٣] أصلية (٥٠) حمراء ، محفظة ٢٦٩ عابدين . بتاريخ ١١ المحرم ١٢٥٦هـ من أحمد شكري إلى محمد علي باشا .

بقيادة محمد بن مفرح المغيدي ، وذلك في شهر المحرم (١٢٥٦هـ) للاشتراك مع قوات الشريف ضد القوات التركية المتمركزة في الحديدية^(١) ، وبعد وصول تلك القوات خرج الشريف من «أبو عريش» في اليوم الحادي عشر من شهر صفر سنة (١٢٥٦هـ) متوجهاً إلى الحديدية - مقر القائد التركي - في محاولة لإخراجهم من تهامة اليمن^(٢) .

وفي تلك الأثناء وصل إلى إبراهيم باشا - سر عسكر اليمن - أمر بالانسحاب مؤرخ في ١٣ ذي الحجة سنة (١٢٥٥هـ)^(٣) ووافق وصول هذا الخطاب إلى إبراهيم باشا وصول قوات الشريف إلى مشارف الحديدية .

ويبدو أن محمد علي نفسه قد قرر الانسحاب من اليمن وإمارة «أبو عريش» ، ولذلك أمر واليه على الحديدية بإرسال الآلاي الثالث والعشرين الموجود باليمن إلى أحمد باشا في الحجاز استعداداً للانسحاب من الجزيرة العربية^(٤) .

ويشير بعض الباحثين إلى أن انسحاب محمد علي من اليمن و«أبو عريش» كان تنفيذاً لقرارات مؤتمر لندن ، الذي نص أحد بنوده على جلاء محمد علي عن الجزيرة العربية^(٥) .

وبالنظر إلى أن جلاء قوات محمد علي من اليمن و «أبو عريش» قد تم في أواخر شهر صفر ومطلع ربيع الأول سنة ١٢٥٦هـ^(٦) بينما عقد مؤتمر لندن في ١٤ جمادى الأولى

(١) هاشم النعمي . المرجع السابق ، ١٩٥ . وتشير الوثائق أن عدد أفراد القوة العسيرة حوالي ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل .

انظر : محفظة ٢٦٩ عابدين ، غرة ٦ أصلية ، ١٥٥١ حمراء تاريخ ٨ صفر ١٢٥٦ هـ ، من وكيل محافظ مكة المكرمة إلى محمد علي باشا ، دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) عاكش . المرجع السابق ، ٣٤٨ .

(٣) علي عسيري . المرجع السابق ، ٣١٢ .

(٤) نفسه ، ٣١٠ .

(٥) انظر : هاشم النعمي . المرجع السابق ، ١٩٥ . العقيلي . المرجع السابق ، ٥١٠/١ . نبيل عبدالحفي رضوان . الدولة

العثمانية وغربي الجزيرة العربية ، ٣٨ .

(٦) د . حسين العمري . المرجع السابق ، ٢٧٥ ، علي عسيري . المرجع السابق ، ٣١٤ .

(١٢٥٦هـ) الموافق ١٥ يوليو (سنة ١٨٤٠م) فإن ذلك يدفعنا إلى القول بأن قرار محمد علي بالانسحاب من إمارة «أبو عريش» والساحل اليمني ، كان بدافع جميع قواته المتناثرة في ثغر جدة ، وإرسال ما أمكن منها إلى الشام ومصر للوقوف أمام الدول الأوروبية التي كانت تتباحث في حينها حول إمكانية تكليف محمد علي باشا بإرجاع جميع جيوشه إلى مصر وإعادة بقية الممتلكات إلى الدولة العثمانية .

وقد تخلى محمد علي باشا عن بلاد العرب في تلك الفترة لاحتياجه إلى المال والرجال ؛ لأنها كانت تكلفه سنوياً مبلغاً قدره سبعمائة ألف جنيه مصري تقريباً ، وذلك رغبة منه في مواجهة القوة بالقوة^(١) .

ومن ناحية أخرى فإن بريطانيا كانت تقارس ضغوطاً متتالية على الباشا للجلاء عن اليمن ، وعلى الرغم من أن الحكومة البريطانية أبلغته عن طريق ممثلها في مصر السير «كامبل» في شعبان عام (١٢٥٥هـ) أكتوبر (١٨٣٩م) رغبتها في جلاء قواته عن اليمن لارتباطها بالمصالح البريطانية ، فقد حاول محمد علي أن يكسب الوقت أمام هذه المفاجأة القاسية ، فما كان من «بلمرستون» وزير الخارجية البريطانية إلا أن عيّن العقيد هودجز «Hodges» خلفاً لكامبل وزوده بتعليمات جديدة على رأسها «البعد عن أسلوب المجاملة واستخدام لغة الحزم والعنف مع الباشا لإقناعه بالجلاء عن اليمن»^(٢) .

وكانت بريطانيا تحرص على إبعاد أي خطر يهدد مصالحها في البحر الأحمر والمحيط الهندي ، وذلك بعد احتلالها لعدن في ٢٨ شوال (١٢٥٤هـ) ١٩ يناير (١٨٣٩هـ) ، وكان يضيقها ذلك النشاط الحربي والتجاري الذي يقوم به محمد علي باشا في جنوب الجزيرة العربية وشرقها ، ولم تتوقف بريطانيا عند هذا الحد ؛ بل سعت بشكل متواصل إلى إخراج قوات محمد علي باشا من الجزيرة العربية نهائياً مستغلة في ذلك

(١) محمد فريد بك . تاريخ الدولة العلية العثمانية ؛ تحقيق : د. إحسان حقى ، ٤٦٠ .

(٢) د. حسين بن عبدالله العمري . المرجع السابق ، ٢٧٤ .

صراعه من الدولة العثمانية وتوجس الدول الكبرى من تنامي قدراته واتساع دائرة حكمه ، وعلى الرغم من تقاطعات المصالح الاستعمارية للدول الكبرى يومئذ إلا أنها بعد مشاورات ومنافسات وصراعات سياسية فيما بينها^(١) اتفقت على ضرورة تهجير قوة الباشا وتحديد منطقة نفوذه بولاية مصر فقط ، حتى فرنسا التي كان محمد علي باشا يعتمد على دعمها تخلت عنه في نهاية المطاف .

وانتهى الأمر بإعلان الباشا قبوله لشروط الدول الكبرى التي أقرت في معاهدة لندن المبرمة في ١٦ جمادى الأولى ١٢٥٦ هـ ، الموافق ١٥ يوليو ١٨٤٠ هـ .

وتدل الوثائق على أن محمد علي باشا عندما قرر التخلي عن السواحل اليمنية لم يأمر بتسليمها إلى الشريف الحسين بل أشار بإحالة إدارتها إلى « ميرلاي » أو « بكباشي » أو إلى أحد العسكر^(٢) ، وتحديد منطقة نفوذ الشريف بالحدود الجغرافية لإمارة « أبو عريش » قبل سيطرتها على السواحل اليمنية ، إلا أن الشريف الحسين وصل بقواته إلى الحديدة في ١٨ صفر سنة (١٢٥٦ هـ) وطلب من إبراهيم باشا تسليمه البلاد والخروج من الحديدة ، فما كان من الأخير إلا الإذعان لذلك .. على الرغم من رغبته في تسليم البلاد إلى شخص آخر غير الشريف حسب الأوامر المبلغة إليه ، ولكن لم تكن لديه القدرة على تنفيذ ذلك وبخاصة أنه قد أرسل معظم جنوده إلى جدة^(٣) .

وتشير مصادر أخرى إلى أن السبب وراء قيام إبراهيم باشا بتسليم تهامة اليمن إلى الشريف بدلاً من إمام صنعاء أن الإمام رفض أن يدفع للباشا ضريبة سنوية نظراً لسوء أوضاعه وضعف إمكانياته ، وكان شريف مكة محمد بن عون يطمح كذلك في السيطرة

(١) لمزيد من المعلومات حول العلاقات السياسية والمواقف المختلفة للدول الكبرى : انظر تفصيل ذلك في: تاريخ الدولة العلية

العثمانية لمحمد فريد بك ، ٤٥٥ - ٤٧٥ .

(٢) محظفة ٢٦٩ عابدين . غرة (١٤) أصلية (٣٨) حمراء ، بتاريخ ٩ ربيع الأول ١٢٥٦ هـ ، من أحمد شكري إلى محمد

علي باشا ، دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) علي عسيري . المرجع السابق ، ٣١٣ .

على تهامة ، ولكن إبراهيم باشا رأى في الحسين حاكماً أكثر قدرة من الآخرين ، والتزم بدفع ضريبة سنوية للباشا تقدر بحوالي (٩٠.٠٠٠ دولار) سنوياً^(١) .

وانسحب إبراهيم باشا وقواته إلى جزيرة « كمران » ووصلها في ٨ ربيع الأول (١٢٥٦هـ) ٩ مايو (١٨٤٠م) بعد أن سلم تهامة إلى الشريف الذي دخلها في العشرين من صفر ١٢٥٦هـ الموافق ٢٢ إبريل ١٨٤٠م ، ووفر الأمن للتجار ، وطلب منهم دفع ضريبة قسرية قدرها (١٢٠.٠٠٠) دولار ، وأصدر مرسوماً يمنع أي مسيحي من ركوب الخيل أو المرور خلال بوابة مكة^(٢) .

وقد اعترض الشريف محمد بن عون - أمير مكة - على خروج قوات محمد علي من اليمن دون قتال أو سبب يذكر ، ولعله لم يعلم بالأمر الصادر من محمد علي إلى إبراهيم باشا توفيق بالانسحاب ، ويقول في رسالته إلى الجناب العالي : « ... فعندما بلغنا ذلك تعجبنا من خروج العساكر المذكورة من ذلك الطرف من غير حرب ، ونظن أن هذا الأمر يغاير لرضاء صاحب السعادة »^(٣) .

ويظهر أن خروج العساكر من اليمن و « أبو عريش » كان بشكل عاجل وغير منظم ، ونتيجة لذلك فقد تركوا كثيراً من المهمات العسكرية وراء ظهورهم ، يقول محمد بن عون : « ... حتى إنه بلغنا أنه عند خروج العساكر من بنادر اليمن ، تبقى جانب مهمات للعساكر ، وصار عليها الحريق بالنار ، وترك بالإسكالات مبالغ جسيمة من البضائع من غير وكيل ، وأيضاً عند إخراج العساكر الخيالة الذين بـ « أبو عريش » ما طلعوا إلا بأمان من ابن مفرح العسيري ، وأرسل صحبتهم ناساً من عسير ، حتى إنهم وصلوهم إلى القنفذة ، وصار

(١) حسين العمري . المرجع السابق ، ٢٧٦ :

- play faire , op.cit , PP . 146 - 147 ; Marston, 100.

(٢) - Ibib, PP. 146 - 147 .

(٣) دار الوثائق القومية ، محفظة رقم (٢٦٩) وثيقة رقم (٦٣) حمراء ، رسالة من الشريف محمد بن عون إلى كتخدا الباب العالي بتاريخ ١٥ ربيع الأول (١٢٥٦هـ) .

انظر : عبدالرحيم عبدالرحمن . من وثائق شبه الجزيرة العربية في عصر محمد علي . ٥١٧/١ .

اختباط عظيم بالحجاز من هذا الأمر ، وكل ذلك ما عرفنا له سبب»^(١) .
ويطالب شريف مكة محمد بن عون بعودة العساكر إلى «أبو عريش» واليمن
فيقول: «... ونحن ظننا إن كان ما يصدر أمر برجوع هذه العساكر ، الذين أقبلوا من
اليمن ، يحصل فتنة عظيمة وضرر وفضيحة بين الناس»^(٢) .
وبصرف النظر عن المراسلات التي دارت بين الأطراف المختلفة حول هذه القضية ،
فإن الشريف قد ثبت أقدامه في حكم إمارة «أبو عريش» حيث قام بعد استقرار الأمور في
الحديدة بتعيين أخيه «أبو طالب» أميراً عليها ثم توجه إلى مدينة «زبيد» واستولى
عليها ، وانطلق بعد ذلك إلى «المخا» وسيطر عليها وعيّن أخاه حموداً أميراً عليها^(٣) .
وقد أثارت سيطرة الشريف على «المخا» حكومة الهند البريطانية ، فأرسلت الملازم
«جوردون» إلى هناك في البارجة البخارية «زنوبيا» لحماية الرعايا البريطانيين ،
ولتحققوا من شعور ذلك الزعيم تجاه الإنجليز ، وكانت المعاملة التي تلقاها «جوردون»
مهينة جداً ، إذ عامله الشريف بغلظة ؛ لأنه كافر ، وطلب منه أن يعنى بشؤونه ، وألا
يتدخل في شؤون المسلمين^(٤) .

وبعد وقت قصير أمر الشريف نائب القنصل البريطاني أن ينزل العلم الذي كان
يحمل شعار الصليب ، وتم رفعه دون إذن منه ، كما طلب من تجار المدينة ومعظمهم من
الأوروبيين وخاصة الإنجليز مبلغاً قدره (٦,٠٠٠) ريال إسهاماً منهم في دعم خزنته ، وقام
الشريف كذلك برفع الرسوم على كل البضائع المستوردة أو المصدرة من قبل الرعايا
البريطانيين من ٢٪ إلى ٩٪^(٥) .

(١) الوثيقة السابقة .

(٢) الوثيقة السابقة .

(٣) عاكش . المرجع السابق ، ٣٤٩ .

(٤) - Play Fair , OP cit , P . 147 .

(٥) - Ibid , 147 .

ولعل الذي دفع الشريف إلى اتخاذ ذلك القرار هو رغبته في إضعاف دور التجار البريطانيين الذين كانت لهم الهيمنة على أسواق اليمن ، وفتح المجال أمام التجار الآخرين وبخاصة الأمريكيين ؛ حيث هبط بالضريبة الجمركية على البن المصدر من «مخا» على السفن الأمريكية إلى ٣٪ فقط ؛ بل إنه تنازل أيضاً عن رسوم الرسو في الميناء في سنة ١٢٥٧هـ/١٨٤٤م^(١) ، وكان يهدف من وراء ذلك إلى توجيه ضربة اقتصادية ضد البريطانيين في عدن ومحاولة توجيه عمليات تصدير البن إلى «مخا» بدلاً من عدن ، وقد أقنع مستر «ويب» Webb قائد السفينة الأمريكية «راتلير» Rattler بأخذ شحنات البن اللازمة له بصفة دورية من «مخا» وكان طبعياً أن يرحب هذا التاجر الأمريكي باستيراد البن من «مخا» بدلاً من عدن بتلك الشروط المرضية^(٢) .

ولم يكتف الشريف بذلك ؛ بل أمر بإنزال العلم البريطاني المرفوع فوق منزل الوكيل القنصلي «عبدالرسول» وذلك أثناء غياب الوكيل وقيام ضابط من الأسطول البريطاني الهندي بمهام القنصلية، ثم مصادرة ممتلكات الوكيل وإرغام الضابط على اللجوء إلى عدن ثم بعث ب خطاب مهين جداً مباشرة إلى حكومة بومباي طالباً التسليم الفوري لعدن ، ومهدداً في حالة رفض طلبه أنه سيطلب المساعدة العسكرية من القبائل العسيرية القوية للسيطرة على عدن بالقوة^(٣) .

وقد قام مجلس شؤون الهند «India Board» الذي كان يدير شؤون شركة الهند الشرقية البريطانية بإبلاغ حكومة لندن - وخاصة وزارة الخارجية - بتلك التصرفات العدائية التي قام بها الشريف الحسين ضد الوكالة البريطانية والعلم البريطاني في «مخا» حيث أثار ذلك ثورة عارمة حفاظاً على المصالح البريطانية في البحر الأحمر^(٤) .

(١) فاروق أباطة . عدن والسياسة البريطانية ، ٢٨٣ .

(٢) المرجع السابق . نفس الصفحة . 105, Marston

(٣) Play fair , OP . cit , P . 147 .

(٤) فاروق أباطة . المرجع السابق ، ٢٨٠ .

ويبدو لنا هنا أن إنجلترا وجدت فرصة مناسبة للضغط على الدولة العثمانية التي كانت غير راضية عن استيلاء بريطانيا على عدن ، ومن ثمَّ فلعل المساومة بقضية «المخا» يجعل الدولة العثمانية تتخلى نهائياً عن أي تطلع لاستعادة عدن ، ويذكرنا موقف بريطانيا في حادثة «المخا» هذه بموقف فرنسا في الجزائر عام (١٨٢٧م) عندما ادعت أن عدة إهانات قد أصابت العلم الفرنسي ممَّا جعلها تقطع علاقاتها الدبلوماسية معها ثمَّ اتخذت موقفاً عسكرياً آخر في سنة (١٨٣٠م) بإعدادها أسطولاً حربياً لاحتلال الجزائر .

ومن جهة أخرى فقد أكد الموظفون الإنجليز الموجودون في الهند ، في تقرير أرسل إلى مديرية شؤون الهند في لندن ، مدى تذرهم واستيائهم من تصرفات الشريف في «المخا» ، وذكروا أن ذلك يضر بالمصالح البريطانية التي سبق تحقيقها في البحر الأحمر ، وأشاروا إلى أن إمام صنعاء قد عرض عليهم التعاون في سبيل نزع ولاية «مخا» من الشريف ، وضمن لهم المصالح البريطانية فيها ، ورفع شأن بريطانيا هناك إضافة إلى حماية وتوفير الأمن لرعايا التبعية البريطانية في «المخا» وأضاف التقرير أن حكومة الهند لم ترغب في التعاون مع الإمام لسببين :

الأول : أن الشريف يعتبر تابعاً للدولة العلية العثمانية وأحد ولايتها .

الثاني : أن الإمام في وضع لا يؤهله للدخول في صراع مع الشريف ، إضافة إلى عدم معرفة نواياه تجاه البريطانيين .

واقترح التقرير أن تقوم حكومة لندن بالاحتجاج لدى الباب العالي عن طريق سفيرها في إستانبول إضافة إلى إبلاغ سفير الدولة العلية في الهند^(١) .

وبناءً على ذلك فقد كتب اللورد «أبردين» وزير الخارجية البريطاني إلى السفير البريطاني في إستانبول السير «ستر اتفورد كاننج» بشأن حادثة «المخا» وطلب منه أن

(١) مسائل مهمة - اليمن . وثيقة رقم (١٧٩٥) ، بدون تاريخ (أواخر ١٢٥٧ هـ تقديراً) ، من مجلس شؤون الهند إلى

يقدم احتجاجه إلى الباب العالي ، وأن يوضح للدولة العلية أن ذلك رُغمًا يؤثر على صداقة وتعاون بريطانيا معها ، وأوضح وزير الخارجية في تلك الرسالة أن من الضروري أن تقوم الدولة العلية بإجراء مناسب لرد كرامة بريطانيا ، وأن تقوم بعزل الشريف الحسين من ولاية «مخا» ، وفي حالة عدم قدرة الدولة العثمانية على اتخاذ أي إجراء ضد الشريف فإن بريطانيا سوف تقوم باتخاذ التدابير اللازمة التي يستحقها الشريف ، بعد الإقرار بذلك رسمياً من قبل الدولة العثمانية ، وبخاصة أن بريطانيا تعاني من ضغوط متتالية من قبل الضباط الإنجليز في الهند الذين يلحون في ضرورة تأديب الشريف الحسين وعزله من منصبه^(١) .

وقد أحاطت الحكومة البريطانية المقيم السياسي في عدن «هينز» بالخطوات التي اتخذتها ضد الشريف.. وعندما علم «هينز» باحتجاج الحكومة البريطانية على الباب العالي أعرب عن دهشته من تصرف حكومته ؛ نظراً لأن ذلك يعني اعترافاً رسمياً بسيادة الدولة العثمانية على موانئ البحر الأحمر ، وقد أوضح «هينز» ذلك في برقية بعث بها لحكومته في ٢٧ يونيو (١٨٤٢م) مؤكداً أن «مخا» كانت دائماً تابعة لإمام «صنعاء» حتى إنه في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر عندما كان للبريطانيين وكالة في «مخا» كان التعامل كله بشأنها مع إمام صنعاء وحكومته ، حتى تمكنت قوات محمد علي من السيطرة على المدينة التي سلمها بعد ذلك للشريف الحسين بن علي بن حيدر^(٢) .

وقد قامت حكومة بومباي بالاحتجاج بشدة على حكومة الهند على التصرف الذي قامت به وزارة الخارجية البريطانية ، وقد كانت الحادثة نقطة البداية لإثارة مشكلة سيادة العثمانيين في منطقة البحر الأحمر ، التي ستصبح في غاية الأهمية عندما تثار من جديد وتستخدم فيما بعد .. وعندما تنبّهت الدوائر الدبلوماسية في بريطانيا للخطأ الذي ارتكبه

(١) الوثيقة السابقة .

(٢) فاروق أباطة . المرجع السابق ، ص ٢٨١ : ١٠٤ - Marstion

عملت على تجاهل موضوع السيادة العثمانية ليكون في طي الكتمان ؛ إذ كان من الممكن أن تتخذ الحكومة العثمانية من حادثة الاحتجاج تلك دليلاً على حقها في السيادة على منطقة البحر الأحمر ، غير أن سجلات وزارة الخارجية العثمانية كانت من سوء الترتيب لدرجة أن ذلك الاحتجاج البريطاني لم يعثر عليه خلال احتدام مشكلة السيادة بعد ذلك ، فكان ذلك في صالح البريطانيين^(١) .

ويذكر نائب المقيم السياسي البريطاني في عدن « Playfair » أن الشريف الحسين والشريف حمود لم يتوقفا عن اضطهادهما للتجار الأوربيين وبخاصة الإنجليز المقيمين في موانئهما ، وأنهما سجنا واحداً حتى دفع فدية قدرها (١٢,٠٠٠ ريال) ، وسجن آخر بحجج كاذبة ، وأرغم على دفع (١٦,٠٠٠ ريال) كثمن لحريته ، ولقي ثالث نفس المصير وغرم (١٠,٠٠٠ ريال)^(٢) .

وأخيراً بعد أن ضجرا من أعمال القهر الفردية ، قاما - حسب رواية « Play fair » التي يبدو فيها بعض المبالغة - بصنع صندوق حبوب ضخم سجنا فيه خمسة وعشرين من تجار « المخا » ، وأعلنا أن ثمن حريتهم يجب أن يكون عُشر ممتلكاتهم ، ممّا اضطهرهم لقبول ذلك الشرط ، حتى الرعايا البريطانيون لم يستثنوا من هذه الأعمال الوحشية ، وجمعت الضرائب الابتزازية على كل السلع المصدرة إلى عدن ، وسجن التجار دون أدنى سبب .. وأرغم أصحاب الحرف الريفية الذين كانوا يزورون « المخا » على نقل كل المرضى والفقراء من هناك إلى عدن^(٣) .

وفي السنة نفسها (سنة ١٢٥٧ هـ) وضع التجار تحت إسهامات قهرية بحجة تمكين الشريف من إرسال جيش بالاشتراك مع عائض بن مرعي شيخ عسير لمهاجمة عدن ، ونفذ

(١) نفسه . Marstion, 105

(٢) نفسه . Marstion, 102

(٣) Play fair , Op cit . P . 149 ; Marstion, 102-103

أوامره عنوة بسلسلة التجار معاً من رقابهم ، حتى أرغموا على الموافقة .. وكان نتيجة أعمال الظلم هذه أن أفرغت «المخا» من كل من كان لديه ممتلكات يخشى ضياعها أو كرامة يريد الحفاظ عليها ، وحدثت في الحال عملية الهجرة إلى عدن بمعدل (١٢٠٠) شخص شهرياً^(١) .

وإزاء هذا الموقف المتعنت من الشريف الحسين تجاه البريطانيين رأت حكومة الهند البريطانية وفي اتجاه آخر - غير ما تقوم به حكومة لندن من احتجاجات لدى الباب العالي - أن تسعى من جانبها لإقامة علاقة ودية مع الحسين بن علي بن حيدر بعد أن ملك زمام الأمور في تهامة، محاولة استرضائه، ولهذا أصدرت تعليماتها إلى الكابتن «مورسبي Captain Moresby» للتقدم تجاه ميناء «مخا» لمحاولة استرضاء الشريف الحسين وإقامة علاقات ودية معه ، وقد نجح كابتن «مورسبي» في الاتفاق مع شريف «مخا» وعقد معه معاهدة تجارية تتفق والمصالح البريطانية في البحر الأحمر^(٢) .

وقد كانت نقطة الخلاف في تلك المعاهدة رفع العلم البريطاني في «مخا» حيث أصر الشريف الحسين على عدم رفعه ، ووافق القبطان «مورسبي» على ذلك .. وقد أشار الشريف الحسين إلى ذلك عندما ناقشه «أشرف بك» المكلف من قبل الدولة العثمانية للتحقيق في الموضوع كما سنرى فيما بعد ، وقد كتب الشريف اسم القبطان بالعربية هكذا «مورزبين» ولم تهدأ السياسة البريطانية في إستانبول ، بل استمرت في تصعيد الموقف لدى الباب العالي طالبة عزل الشريف الحسين بن علي بن حيدر من منصبه^(٣) .

وقد أحيط السلطان علماً باحتجاجات بريطانيا، واطلع على طلب السفير البريطاني في إستانبول عزل الشريف الحسين من منصبه ، وقد أحال السلطان الموضوع إلى مجلس

- Ibid , 149 -

(١)

(٢) فاروق أباظة . المرجع السابق ، ٢٨٢ : د . جاد طه . سياسة بريطانيا في جنوب الجزيرة العربية ، ٢٢٢ .

(٣) مسائل مهمة - اليمن . وثيقة بدون رقم ، وتاريخها ٤ رمضان سنة (١٢٥٨هـ) عبارة عن أسئلة من أشرف بك إلى

الشريف الحسين بن علي بن حيدر وإجابة الشريف عليها : Marstion, 101 -

الوكلاء لدراسته ، وفيما يبدو أن الدولة العثمانية لم تكن لديها المعلومات الكافية عن الوضع في تلك المنطقة ؛ حيث كان مجلس الوكلاء يتساءل عما إذا كان الشريف منقاداً ومطيعاً فعلاً للدولة ، وأنه يدفع ما عليه من ضريبة القهوة للباب العالي ، وقد وصلت خطابات من شريف مكة محمد بن عون يذكر فيها أن المعلومات لديه ليست كافية عن حقيقة الوضع في إمارة «أبو عريش» والسواحل اليمنية .

وقد طلب مجلس الوكلاء من «تركجه بيلماز»^(١) الذي يعرف المنطقة جيداً أن يقدم تقريراً عن الأوضاع فيها ، وعلى ضوء ذلك يُمكن إجابة السفارة الإنجليزية بإمكانية عزل الشريف أو عدم القدرة على ذلك ، وبناءً على تقرير «تركجه بيلماز» إضافة إلى ما تداولته الصحف عن الأوضاع في اليمن ، واحتلال بريطانيا لعدن ، فإن المجلس الخاص قد رأى أنه ليس من المناسب أن تتعجل الحكومة العثمانية بعزل الشريف ، وبخاصة أن احتلال بريطانيا لعدن قد أثار الشكوك في موقف الدولة العثمانية وتواطئها مع المحتلين ، وتساهلها في الوقوف ضد بريطانيا .. فإذا أقدمت على خطوة أخرى لصالح بريطانيا، وهي عزل الشريف فإن ذلك سيؤدي إلى ثورة شعبية عامة في اليمن ضد الدولة العثمانية، وبالتالي فقد رأى مجلس الوكلاء أنه ليس من الحكمة أن يعزل الشريف في مثل تلك الظروف .

واتفق مجلس الوكلاء في المجلس الخاص على أن تتم الإجابة على السفير البريطاني بأنه سيرسل موظف من طرف السلطنة إلى الشريف الحسين لمناقشته والنظر في إصلاح الأمور، وإذا استدعى الأمر عزله فإن الدولة لن تتأخر في ذلك^(٢).

واقترح مجلس الوكلاء أن يقوم موظف من كتبة الديوان الهمايوني بالسفر إلى مصر عن طريق البحر لمقابلة والي مصر محمد علي باشا ، لأخذ المعلومات الضرورية اللازمة منه ،

(١) انظر التعريف بهذه الشخصية في ص : ١٥ .

(٢) مسائل مهمة . اليمن . وثيقة رقم (١٧٩٥) ، بتاريخ ١٢٥٨ هـ / من الصدر الأعظم إلى السلطان .

ثم يتابع سفره من مصر مباشرة إلى جدة لدراسة الأمر مع والي جدة وشريف مكة ، وأخذ رأيهما في مسألة عزل الشريف الحسين وتعيين وال آخر مكانه .. وعلى الموظف المذكور أن يكتب بكل مباحثاته ومشاوراته إلى وزارة الخارجية العثمانية لإبداء مريئياتها قبل اتخاذ أي قرارات في هذا الشأن .

وقد رشح مجلس الوكلاء السيد «أشرف بك بن سليم ثابت أفندي» أحد كتبة الديوان السلطاني للقيام بهذه المهمة ، نظراً لما يتمتع به من علم ودراية بأحوال الحجاز واليمن ، وحدد له مبلغاً قدره خمسون ألف قرش (٥٠,٠٠٠) مصاريف سفريّة للقيام بالمهمة المذكورة ، وأن تصرف له فوراً من الخزانة الجلييلة في إستانبول ، ويتم تسديدها من خزانة الحجاز فيما بعد^(١) .

وبعرض الموضوع على السلطان .. صدرت الإرادة بالموافقة على ما اقترحه الوكلاء في هذا الشأن واعتماد المبلغ المقترح لتغطية مصاريف الرحلة على أن يكتب إلى والي جدة لتسوية المبلغ مع الخزانة السلطانية .

وبالنسبة للموقف مع السفارة البريطانية في إستانبول فإن مجلس الوكلاء اقترح أن يرسل إليها ما يفيد بأن الدولة سوف تنظر في إمكانية عزل المذكور وأنها أرسلت أحد موظفيها لدراسة الأمر من جميع نواحيه^(٢) .

وبناء على ذلك فإن سفير بريطانيا بعد اطلاعه على قرار الحكومة العثمانية بإرسال أحد موظفيها إلى اليمن .. اقترح أن يقوم هو بدوره بإبلاغ حكومته بإرسال أحد موظفيها إلى هناك للالتقاء بأشرف بك وتدارس الموضوع سوياً ، ووافقت وزارة الخارجية العثمانية على ذلك .

وتوجه أشرف بك إلى مصر عن طريق بيروت حيث وصلها يوم الجمعة ١٦ صفر سنة

(١) الوثيقة السابقة .

(٢) نفس الوثيقة .

(١٢٥٨ هـ) وأقام بها خمسة أيام ، ثم انتقل على إحدى السفن الشراعية إلى الإسكندرية ووصلها بعد ثلاثة أيام ، ومكث في الحجر الصحي بها حوالي ستة أيام ، وقد التقى بمحافظ الاسكندرية «زكي أفندي» وسأله عما إذا كان والي مصر موجوداً في القاهرة فأفاده بأنه موجود في «منيا القمح» شرق القاهرة .. والتقى أشرف بك بعد ذلك بوالي مصر محمد علي باشا وناقش معه الموضوع ، واستفسر أشرف بك من محمد علي عن وجود معاهدة تجارية بينه وبين الإنجليز تبيح لهم الاستفادة التجارية من موانئ البحر الأحمر وبخاصة «المخا» ، وأفاد محمد علي بأن المعاهدة التجارية معهم ألغيت وأنه لم يبق بينه وبينهم إلا معاهدة القطن التي تنتهي بعد حوالي ثلاثة أشهر^(١) ، وقد أبدى محمد علي باشا رأيه حول موضوع الشريف الحسين ، وزود أشرف بك بالمعلومات اللازمة . وأرسل الباشا تقريره إلى الباب العالي بتاريخ ٣ ربيع الآخر سنة (١٢٥٨ هـ) واقترح فيه طريقين لحل هذا الموضوع :

أولهما : بضمان الأمير المذكور - الشريف الحسين - يتم ترضية الرعايا والتجار الإنجليز .

ثانيهما : عزل الشريف المذكور وتعيين وال جديد من جانب الدولة العلية لإدارتها بطريقة حسنة .

أمّا بخصوص الطريق الأول ، فإنه عند وصول أشرف بك إلى مكة المكرمة، فإنه يقوم ببحث ودراسة هذا الأمر مع كل من والي جدة عثمان باشا وشريف مكة والتنسيق معهما ، ثم يلتقي بعد ذلك مع الشريف الحسين في اليمن للتباحث معه بطريقة حسنة ولطيفة حتى يُمكن جذبه إلى الدولة العثمانية، وإنه أحد أمرائها ومن يحسبون عليها ، وعلى أشرف بك أن يلوح بالقوة أثناء مفاوضاته مع الشريف ؛ لكي يقبل الإرادة العلية

(١) مسائل مهمة . اليمن . وثيقة رقم (١٧٩٦) وتاريخ ١٨ صفر سنة ١٢٥٨ هـ / من السيد محمد أشرف بك إلى الصدر

الأعظم بشأن مقابلته مع محمد علي باشا .

الصادرة من السلطان ، ويشير إلى أن الدولة سترسل إليه القوات والسفن الحربية لإخضاعه في حين رفضه إنهاء الموضوع بهدوء وسلام .

أمّا الطريق الثاني أو الحل الثاني وهو تنصيب والٍ جديد ، فإن ذلك يعني عزله بالقوة العسكرية البرية والبحرية عن طريق السيطرة على الموانئ اليمنية قبل إصدار أي قرار يتعلق بالولاية .

واقترح محمد علي باشا أنه لا يُمكن الأخذ بالحل الثاني قبل تجربة الحل الأول ، وأخذ رأي شريف مكة محمد بن عون ووالي جدة عثمان باشا والفریق أحمد باشا قائد القوات العثمانية في الحجاز ؛ لأنهم جميعاً أكثر قرباً من المكان ومعلوماتهم أكثر دقة^(١) . وقد لوحظ في تقرير محمد علي باشا تأكيده على عدم استعمال الشدة مع الشريف الحسين حاكم «المخا» ومحاولة إرضائه وإدخاله تحت طاعة الدولة العلية ، نظراً لكونه يتمتع بقوة ومركز ممتاز ، ولا يُمكن عزله إرضاءً للإنجليز، وبخاصة أنهم يببالغون في توصيل المعلومات للدولة العثمانية ، ولعل هذا الموقف يمثل مدى حق الباشا على الإنجليز ومعرفته بدسائسهم ومؤامراتهم .

وبعد وصول «أشرف بك» إلى جدة تباحث مع والي جدة «عثمان باشا» حول الموضوع، ثم انتقل إلى مكة المكرمة لمقابلة الشريف «محمد بن عون» واتفق الرأي على أن يقوم «أشرف بك» ومعه كل من «حسين أفندي» كاتب ديوان شريف مكة والكتخدا «رشيد آغا» بالسفر إلى اليمن للبحث والتقصي واستجلاء المعلومات الصحيحة حول ما ذكر بشأن الشريف الحسين بن علي بن حيدر .. وتمّ تزويد الوفد برسالة تحمل الوصايا والنصائح للشريف للانتقياد والطاعة^(٢) .

وقد وصل «أشرف بك» إلى اليمن والتقى بالشريف في «زبيد» في أوائل شهر

(١) مسائل مهمة - اليمن . وثيقة رقم (١٧٩٧) في ٣ ربيع الأول ١٢٥٨ هـ ، من محمد علي باشا إلى السلطان ، تقرير حول مهمة أشرف بك .

(٢) مسائل مهمة - اليمن . وثيقة رقم (١٧٩٧) بدون تاريخ (خلاصة للحفظ أعدها كتبة الديوان) .

جمادى الأولى سنة (١٢٥٨ هـ) ولم يتخذ «أشرف بك» أي إجراء رسمي بل اكتفى بنقل تحيات ومشاعر والي جدة «عثمان باشا» وشريف مكة «محمد بن عون» إلى الشريف الحسين حيث يظهر لنا ذلك جلياً في عبارات رسالة الشريف الحسين إلى والي جدة «عثمان باشا»^(١) ويظهر أن أشرف بك قد حصر حديثه مع الشريف في ثلاث نقاط رئيسة هي^(٢) :

١ - مدى طاعة الشريف للدولة العثمانية وهل هو يقوم بالدعاء للسلطان على منابر ومساجد منطقتة .

٢ - مدى موافقة الشريف على افتتاح قنصلية إنجليزية وما السبب في إغلاق القنصلية السابقة ؟ .

٣ - مدى العلاقة بينه وبين أمير عسير عائض بن مرعي^(٣) .

وقد اتضح للمبعوث العثماني «أشرف بك» أن الشريف لا يريد العصيان والوقوف في وجه الدولة العلية ، وأنّ لديه الاستعداد للإعلان باسم الدولة والسلطان إذا ما تمّ تنصيبه رسمياً من قبل الدولة حاكماً على «المخا» وملحقاتها .

أمّا بالنسبة للقنصلية الإنجليز فقد أوضح الشريف أنها افتتحت في السابق بموجب أمر صادر من محمد علي باشا ، أمّا الآن فهي موجودة تحت حكم الدولة العلية ، ولأجل بقاء القنصل في «المخا» فلا بد من صدور أمر سلطاني بذلك ، وبمناقشة علاقة الشريف بأمير عسير أوضح أنها علاقة طيبة وأنه متفق معه على طاعة الدولة العثمانية ، وليس لهما من طلب سوى إصدار فرمان عال بتولية كل منهما حكم الجهة التي يسيطر عليها^(٤) . وبناءً على ذلك فقد وعد «أشرف بك» بأنه سيدرس كل هذه الأمور مع والي جدة

(١) مسائل مهمة - اليمن . وثيقة عربية رقم (١٧٩٧) وتاريخ ٦ جمادى الأولى سنة ١٢٥٨ هـ ، رسالة من الشريف الحسين علي بن حيدر إلى والي جدة عثمان باشا .

(٢) مسائل مهمة - اليمن . وثيقة رقم (١٧٩٦) وتاريخ ٢٣ رجب سنة ١٢٥٨ هـ ، من محمد بن عون إلى الصدر الأعظم .

(٣) الوثيقة السابقة .

(٤) مسائل مهمة - اليمن . وثيقة رقم (١٧٩٧) ، بدون تاريخ (خلاصة للحفظ أعدها كتيبة الديوان) .

وأمر مكة للكتابة بذلك إلى الباب العالي ، وطلب من الشريف أن يقدم له التماساً إلى السلطان ، ولم يتضح من الوثائق التي بين يدي شيئ عن مقابلة «أشرف بك» لأحد مندوبي أمير عسير ، ولكن يبدو أن هناك اتصالاً بين المبعوث العثماني وعائض بن مرعي ، حيث تشير إحدى الوثائق إلى أن أمير عسير مطيع للدولة العثمانية ومحافظ على الطريق والأمن ، وأنه قد أرسل التماساً بطلب الولاية مع مجموعة من مشايخ عسير ، وقد تعهدوا بذلك عند حضرة والي جدة^(١) .

وتظهر حنكة الشريف في حرصه على إصدار أمر سلطاني لأمر عسير أيضاً حتى يُمكن أن يتجنب الصدام مع إمارة عسير في حال صدور الأمر السلطاني له فقط ، حيث سينظر إليه كتابع للدولة العثمانية يجب محاربتة ، وفي صدور أمر لمنافسة عائض بن مرعي يصبح الاثنان من أتباع الدولة العثمانية ، ويجنب إمارته ويلات الصراع مع عسير . وبعد عودة «أشرف بك» إلى جدة التقى «بعثمان باشا» ودرس معه نتائج رحلته ، وكذلك انتقل إلى الطائف لمقابلة الشريف «محمد بن عون» لاطلاعه على ما وصل إليه خلال مباحثاته مع الشريف وتم إشعار الباب العالي بذلك .

وبناءً على ما وصل من الباب العالي من معلومات بشأن المعاهدة المعقودة مع بريطانيا ، وإرسال صورتها إلى والي جدة مع «أسعد أفندي» أحد وكلاء بوابي القصر ، ويتدارس الموضوع بين والي جدة وشريف مكة رُئي أن من المناسب أن يعود «أشرف بك» إلى اليمن لتبليغ الشريف شفاهاً بموافقة الدولة العلية على بقاءه حاكماً على اليمن ، وأخذ موافقته على افتتاح القنصلية البريطانية في «المخا» إضافة إلى التزامه بدفع المصروفات الحجازية ، وإعانة القهوة للمطبخ السلطاني ، وقد أبلغ الباب العالي بهذا الإجراء^(٢) .

(١) مسائل مهمة - اليمن . وثيقة رقم (١٧٩٦) ، وتاريخ ٢٣ رجب سنة ١٢٥٨هـ ، من شريف مكة محمد بن عون إلى الصدر الأعظم .

(٢) مسائل مهمة - اليمن . وثيقة رقم (١٧٩٧) ، وتاريخ ١ شعبان سنة ١٢٥٨هـ ، من والي الحجاز عثمان باشا إلى الصدر الأعظم .

وفي اليوم الحادي عشر من شهر شعبان سنة (١٢٥٨ هـ) تحرك المبعوث العثماني «أشرف بك» من جدة إلى اليمن مرة أخرى لمقابلة الشريف في «زبيد» وتسليمه التحريرات الخاصة بعلاقته مع الدولة العثمانية^(١).

وقد أشار «أشرف بك» في تقريره حول مأموريته بتاريخ ٣ رمضان سنة (١٢٥٨ هـ) الخاصة باليمن ؛ حيث أفاد أنه وجه ثلاثة أسئلة إلى الشريف ، وكان السؤال الأول يتعلق بالقنصل الإنجليزي بـ «المخا» الذي طرده الشريف ، وكسر عمود بيرقهم ، وأن إنجلترا طلبت عن طريق ممثلها في إستانبول التحقيق حول هذا الموضوع ، وأمر الباب العالي الخاص بذلك ، وطلب منه الإجابة على حسب ما هو متبع من إجراءات واتباع قوانين التحكيم . وبناءً على ذلك فإن الدولة العثمانية قد أرسلته خصيصاً لأجل العمل على إرضائهم والتحدث مع قومندانهم وقبودانهم ، مع العمل على رفع بيرقهم على حسب ما هو متبع منذ مدة ، ومعاملة قنصلهم معاملة حسنة^(٢).

وقد أجاب الشريف الحسين على ذلك ، بأن البيرق لم ينصب قبل أن يسيطر محمد علي باشا على اليمن ، ويشير أنه شاهد «المخا» بعد سيطرة محمد علي في عامي (١٢٥٠ - ١٢٥١ هـ) ولم يكن للإنجليز بيرق في تلك المدة أو قبل ذلك ، وعندما تولى الحكم وأصبحت «المخا» من ضمن ممتلكاته ، أعاد نفس الوضع السابق ، إظهاراً لشعار الإسلام ، وإبطالاً لشعار الكفر ، ولم يكن بالبندر قنصل بل كان في مرسى «المخا» قبطانان ، فنزلا إليه وسلماه كتاباً بأمر «السركال» المقيم ببندر عدن، مضمونه إرسال القبطان «مورزبين»^(٣) إليه للتباحث في الأمر ، واتفق معه على عدم رفع البيرق ، وأن يستمروا على العوايد القديمة في جميع المعاملات ، وأنه تم كتابة الاتفاق على ذلك ، ولم

(١) مسائل مهمة - اليمن . وثيقة رقم (١٨٩٧) ، تاريخها أواخر ١٢٥٨ هـ تقديراً ، من مجلس الأحكام العدلية إلى السلطان.

(٢) تقرير أشرف بك بتاريخ ٣ رمضان سنة ١٢٥٨ هـ .

(٣) القبطان مورسبي «Cptain Moresby» .

يحصل من الطرفين اختلاف بخصوص ذلك ، ولم يطرد أحداً ولا يوجد دليل على ذلك^(١) ،
وثانياً : لو أن بيرق الإنجليز الموجود بـ «المخا» في ذلك الوقت قد رفع بأمر السلطان ، كان
قد أظهر له القبطان الأمر ، فإنه مطيع لأوامر السلطان ، واستشهد ببعض الآيات القرآنية
والأحاديث الشريفة التي تدل على وجوب طاعة ولي الأمر .

وتبدو حنكة الشريف السياسية في قوله : «فإن كان الأمر في الحال وارداً من
مولانا السلطان - دام مجده - مخصوصاً إلينا ، فيظهر علينا حتى تكون ذمتنا بارية ،
ونقول سمعنا وأطعنا ، وهو الراعي وكل راع مسؤول عن رعيته .. وإن كان إلأً بالمكاملة
لأجل المصالح ، فذمتنا بارية والله تعالى يقول : ﴿الَّذِينَ إِذَا مَكَتَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٢) ، وقال نبينا محمد ﷺ : من
رأى منكم منكراً فليغيره بيده أو بلسانه أو بقلبه ، وذلك من أضعف الإيمان» فقد غيرنا ما
استطعنا تغييره كما هو الواجب علينا من قبل الله سبحانه ، ونحن باقون على ما نحن
عليه من تغيير هذا المنكر ، ونعتقد أنه ممّا يرضي الله ثم يرضي مولانا السلطان أعزه الله ،
فإن جاءنا أمر كريم مستقل إلينا بإعادة بيرق الكفار ، وإظهار شعارهم ، امتثلنا للأمر
وكان ذلك إلى ذمة مولانا السلطان أعزه الله ، وسمعنا وأطعنا وبريت ذمتنا»^(٣) .

وأماً السؤال الثاني الذي وجهه أشرف بك إلى الشريف فكان بشأن رفع الدعاء على
منابر المساجد للسلطان العثماني .. ويرر «أشرف بك» ذلك بأن «إقليم اليمن من القديم
مملوك وموروث لحضرة مولانا السلطان ظل الله في الأرض ، فبناء عليه يقتضي الإعلان
باسم مولانا السلطان على منابر مساجده الشريفة ، ويدعى له بها كما هو الجاري في سائر
الممالك المحروسة ، فهذا أمرت شفاها أخبر به جنابكم لأجل العمل بمضمونه»^(٤) .

(١) تقرير أشرف بك بتاريخ ٣ رمضان سنة ١٢٥٨هـ .

(٢) سورة الحج ، الآية : ٤١ .

(٣) تقرير أشرف بك بتاريخ ٣ رمضان سنة ١٢٥٨هـ ، ص ٢ .

(٤) التقرير نفسه .

وكان جواب الشريف : « ... فنقول الأمر حقيق كما ذكر ، والدعاء واجب لسلطان المسلمين أعزه الله بتوحيده ، لكن لا يُمكن إعمال شيء من الأمور الدينية والدنيوية إلا بأمر كريم من الدولة العلية .. يرد به فرمان إلى القائم في أرض اليمن حسب العادة الجارية قديماً ، فنحن في الحال ندعو لسلطان المسلمين عقب الصلوات بالنصر على أعداء الدين حتى يرد إلينا الأمر الكريم ، ونعلن بالدعاء على المنابر ، ويظهر أمرنا عند الخاص والعام أننا من جملة خواص السلطان »^(١).

وقد كان سؤال « أشرف بك » الثالث للشريف بأنه في حالة صدور فرمان سلطاني بإحالة منصب جميع الأماكن التي تحت سيطرته إليه رسمياً فهل سيلتزم بدفع المقدار السنوي المعتاد من القهوة إلى المطبخ السلطاني ؟ وهل سيدفع الإعانة النقدية للمساعدة في مصاريف الحرمين الشريفين إضافة إلى حسن التزامه وطاعته للدولة^(٢) ؟ .

وأجاب الشريف : « ... فلا بأس بإحالة منصب أقطار اليمن إلينا جميعاً بإعطاء فرمان في يدنا على الأقطار الذي عليها المعتاد السنوي إن كان بُن أو غيره ، فإذا صارت في يدنا جميعاً من غير نقص سلطنا المعتاد بالوفاء والتمام من غير اختلال ولا اختلاف ، ونبذل حسن الخدمة للدولة العلية حسب الذي يجب علينا من قبل الله سبحانه وتعالى »^(٣).
وقد وقع كل من الشريف وأشرف بك على التقرير المذكور ، ويبدو لنا من خلال الأسئلة والإجابات أن الهدف الرئيس لدى المبعوث العثماني إلى اليمن هو تأكيد سلطة الباب العالي على تلك الجهات ، وذلك من خلال طلبه الدعاء للسلطان على منابر المساجد ، إضافة لدفع ضريبة سنوية من البن للسلطان ، والمشاركة في مصروفات الحرمين الشريفين ، ولكن الشريف أبدى مقدرة سياسية رائعة في جميع إجاباته ؛ حيث كان يدرك وهو في بداية ولايته أنه لا يُمكن الدخول مع الدولة العثمانية في صراع قد يؤدي إلى أن يفقد

(١) التقرير السابق نفسه .

(٢) التقرير السابق نفسه .

(٣) التقرير السابق نفسه .

سلطته على إمارة «أبو عريش» ، إضافة إلى تربص بعض القوى المحلية به ؛ ولذلك فقد كانت إجاباته جميعاً تنصب في مسار واحد ، وهو ضرورة إصدار فرمان سلطاني يؤكد ولايته على المناطق اليمنية التي استلمها من محمد علي باشا ، وبذلك يضمن الاعتراف به رسمياً ، إضافة إلى حماية الدولة له ضد المؤامرات البريطانية .

أمّا فيما يتعلق بالعلم البريطاني ، فقد كانت إجاباته مقنعة لأشرف بك ؛ حيث كان الشريف يبدي حرصه على تلك المناطق من التسلط البريطاني الذي كانت سيطرته ظاهرة على موانئ البحر الأحمر ، وقد أخرج نفسه من المسؤولية تجاه حادثة «المخا» بأنه لا يوجد ما يثبت أحقية بريطانيا في فتح قنصلية لها ، ولم يصدر له أمر من السلطان بذلك ، وعلى هذا فإنه يعتبر أنّ من تمام المسؤولية والرعاية والأمانة أن يمنع أي شعار للكفار ؛ براءة للذمة ، ثمّ يربط ذلك بصدور أمر سلطاني إليه بالإذن بفتح قنصلية ، ممّا يجعل من ذلك دليلاً على اعتراف الباب العالي بسلطانه في تلك الأماكن .

وقد اشتكى الشريف من تعدي الإنجليز على بندر عدن ، وهتكهم حرمة الإسلام بجعلهم المساجد مرابط للخيل والبغال والحمير ، ومأوى للكلاب والخنازير ، وناشد السلطان بالتدخل قائلاً : «... ونعتقد أن ذلك لم يبلغ إلى المسامع الشريفة ، ولو بلغه ما قرّ له قرار حتى يزيل هذه الطائفة عن بلاد الإسلام ، كيف وهو يجاهد الكفار ويغزوهم في ديارهم ، وعدن هو من الأقطار اليمنية والجميع بلاد السلطان ، ولا وقع قبض عدن إلاّ برضى طائفة أشرار من برور البندر المذكور وسكوت محمد علي باشا ، فيا لله وبا للإسلام ، الحماية الحمية في الإسلام ، الغيرة الغيرة على الإسلام...»^(١) .

ويبدو أن الشريف الحسين لم يتفهم الموقف الدولي حينذاك ، أو أنه يتجاهل ذلك ؛ لأنّ الدولة العثمانية كانت في مرحلة من الضعف والتفكك وعدم القدرة على الوقوف ضد المطامع الاستعمارية في أراضيها ، بل إنها استعانت ببريطانيا وفرنسا ضد تمرد محمد

(١) التقرير السابق .

علي باشا يومئذ ، أمّا بالنسبة لسكوت محمد علي باشا ؛ فمن المعروف أن محمد علي قد أجبر بموجب معاهدة لندن سنة (١٢٥٦هـ) على ترك جميع الممتلكات الأخرى عدا مصر ، والشريف نفسه قد استلم اليمن منه - أي بعد خروج قواته - فكيف يتدخل محمد علي ضد بريطانيا التي وقفت له بالمرصاد ، وعملت على تصفية جيشه ، وإغلاق مصانعه ، وما ترتب على ذلك من نتائج .

وبانتهاء أشرف بك من مهمته في «زبيد» أوضح للشريف أنه سيؤيد تعيينه ، بل من المحتمل أنه أبلغه شفاهاً بالموافقة على تنصيبه حاكماً على اليمن بناءً على تفويض من الباب العالي وبالتنسيق مع شريف مكة ووالي جدة ، على أن يلتزم الشريف بالطاعة للسلطان ، والسماح للقنصل البريطاني بالبقاء في «مخا» بعد وصول الأمر السلطاني إليه ، وزوده بصورة من معاهدة الصداقة المعقودة مع بريطانيا^(١) .

وقد أشار المؤرخ المحلي «الحسن بن أحمد عاكش» إلى ذلك ، وهو الشخصية المقربة من الشريف الحسين ، يقول عاكش في أحداث عام (١٢٥٨هـ) : «... وفيها وصل رأي من السلطان - صاحب الروم - عبدالمجيد يقتضي للشريف على جهة اليمن بالتأييد ، وإنّما يطلب منه الإعلان له بالخطبة على رؤوس المنابر ، وذلك بواسطة محافظ جدة وشريف مكة ، فقابل الشريف ذلك الرأي بالامتنال ، ورآها يداً للسلطان في الظاهر ...»^(٢) .

بل نجد المجتمع المحلي يتحدث عن تلك الاتفاقية بين الشريف والمبعوث العثماني «أشرف بك» ويتساءل عن مدى جواز رفع بيرق الكفار - الإنجليز - في «المخا» ، وقد وجه سؤال إلى الحسن بن أحمد عاكش - أحد قضاة الشريف - من بعض أعيان «زبيد» يسأله عن حكم السماح للإنجليز برفع علمهم في «المخا» ، ورد عليهم «عاكش» موضحاً جواز ذلك ، ومستندلاً بقوله تعالى : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾^(٣)

(١) مسائل مهمة - اليمن . وثيقة رقم (١٨٩٧) بتاريخ ١١ المحرم سنة ١٢٥٩هـ ، من مجلس الوكلاء إلى السلطان .

(٢) عاكش . المرجع السابق ، ٣٧٣ .

(٣) سورة الأنفال ، الآية : ٦١ .

ومبرراً تلك الموافقة بضعف المسلمين وقوة الكفار قائلاً : « ... وكفي في المادة وما نحن فيه من هذا القبيل ؛ لأن الإفرنج هم الطالبون للصلح على رد بيرقهم مع عدم الاستطاعة في الحال لأهل الإسلام في مقاومتهم من جميع الوجوه ، وربما تعدى ذلك إلى ما هو أكبر من البيرق ، ودفع المفسدين بأخفهما معتبر في هذه الشريعة ... »^(١).

وقد كان رد الفعل لدى الإنجليز في عدن سيئاً تجاه تطور الأحداث لغير مصلحتهم ، حيث توقعوا أن يقوم أشرف بك باتخاذ إجراءات أكثر صرامة وقوة تجاه الشريف ؛ بل توقعوا أن يقوم بتأييد مطالب بريطانيا في عزله ، وقد اتهمه الإنجليز بالتهاون في تنفيذ مهمته ، وأنه من المحتمل أن الشريف رشاه ؛ لأنه تجنب كل فرصة للقاء السيد «كروتندن» الممثل السياسي في عدن الذي أرسل ليجتمع به^(٢).

أمّا بالنسبة لإمام صنعاء فإنه قد عرض خدماته أكثر من مرة للتعاون مع بريطانيا في سبيل القضاء على الشريف الحسين ، فقد أرسل في الثاني والعشرين من إبريل سنة (١٨٤١م) بعثة إلى عدن تحمل الهدايا القيمة ، وتهدف إلى طلب تعاون البريطانيين عن طريق البحر لتمكين الإمام من انتزاع موانئ تهامة من أشراف «أبو عريش» ، ولكن مبدأ عدم التدخل في السياسة العربية الذي فرض على الممثل السياسي في عدن وقف دون الموافقة على هذا الطلب^(٣).

وقد أرسل الإمام مبعوثاً آخر في يوليو لتجديد طلب التدخل العسكري ، وفوض مندوبه الذي كان يشغل منصب حاكم «تعز» لتقديم أي شروط ، وأعرب عن رغبة سيده لتوقيع أية اتفاقية قد يملئها البريطانيون ، أو التنازل عن «زيلع» أو أي من ممتلكاته كضمن لهذا التعاون ، وعلى الرغم من أن الممثل السياسي كان متعاطفاً بحق مع حاكم صنعاء فقد

(١) المصدر نفسه ، ٣٧٤ - ٣٧٦ .

(٢) Play fair , OP . cit , P . 149 .

(٣) - Ibib, P. 148 .

أخبره أن البريطانيين قرروا الوقوف إلى جانب الحياد التام بخصوص النزاعات التي كانت تعصف باليمن^(١) .

وقد كتب المقيم السياسي البريطاني «هينز» إلى المجلس السري «The Secret Board» لشركة الهند الشرقية البريطانية بأن إمام صنعاء عاد مرة أخرى وعرض عليه تعاوناً بريطانياً يمينياً لحصار «مخا» في مقابل تنازل الإمام لبريطانيا عن تهامة بعد تخليصها من حكم الحسين .. وقد وصل الأمر بالإمام إلى هذا الحد نكايَةً بالشريف نظراً لأنه لم يكن قادراً على التغلب عليه حينذاك^(٢) .

وفي مستهل عام (١٨٤٣م) أرسل الإمام إلى عدن للمرة الثالثة راجياً مساعدة البريطانيين ، وطلب أن يفوض ضابط إنجليزي لزيارته في صنعاء لبتشاور معه حول أفضل السبل لطرد المعتصبين من ساحل تهامة ، إلا أن نفس الرد أعيد إليه كما في السابق^(٣) .

وقد عاد أشرف بك إلى جدة واجتمع بمحافظها عثمان باشا وعرض عليه كل ما قام به أثناء مهمته ، وقد أرسل عثمان باشا تقريره إلى الصدر الأعظم موضحاً له فيه قيام أشرف بك بمهمته على خير ما يرام ويطلب منه مايلي :

١ - إصدار فرمان بتولية الشريف الحسين بن علي بن حيدر على جميع المناطق التي تحت يده بما فيها «المخا» وتوابعها .

٢ - إصدار أمر سلطاني بافتتاح قنصلية إنجليزية في «المخا» وفق معاهدات الصداقة مع بريطانيا .

٣ - إصدار فرمان بتولية الشيخ عائض بن مرعي على عسير تحقيقاً لمفهوم التبعية العثمانية^(٤) .

(١) - Ibib, P. 149 ; Marstion, 103 .

(٢) فاروق أباطة . المرجع السابق ، ٢٨٢ : Marstion, 105 .

(٣) - Play fair, op.cit, P150 .

(٤) مسائل مهمة - اليمن . وثيقة رقم (١٧٩٧) ، وتاريخ ٢١ رمضان سنة ١٢٥٨ هـ من والي جدة عثمان باشا إلى الصدر الأعظم .

وبناءً على التقارير الواردة من شريف مكة محمد بن عون ، ووالي جدة عثمان باشا ، والمبعوث العثماني أشرف بك فقد عقد مجلس الأحكام العدلية جلسته في يوم السبت ١١ المحرم سنة (١٢٥٩هـ) لدراسة كافة التحريات الواردة في هذا الشأن ، وقدم تقريراً شاملاً عن القضية إلى السلطان ، موضحاً له ما قام به المبعوث السلطاني من جهود ، ومبيناً موقف الشريف الحسين بن علي بن حيدر وأمير عسير من الدولة العثمانية ، واشتمل التقرير على مطالب الشريف بشأن تنصيبه والياً على المخا واليمن ، وكذلك ما يتعلق بالقنصلية الإنجليزية وغيرها من القنصليات الأجنبية ، وتطرق التقرير إلى مسألة سيادة الدولة العثمانية على الموانئ الموجودة على ساحل البحر الأحمر ، وضرورة إصدار فرمان سلطاني بتولية الشريف عليها حتى يمكن الوقوف أمام أي تدخل أجنبي في أي جزء من تلك المنطقة^(١) .

وفي يوم السبت ١٨ المحرم (١٢٥٩هـ) عقد مجلس الوكلاء جلسته النهائية في موضوع الشريف الحسين بن علي بن حيدر وقرر مايلي :

أولاً : بما أن الشريف الحسين بن علي بن حيدر مطيع ومنقاد للدولة العثمانية ، وملتزم بدفع الضريبة السنوية من القهوة ، والمساهمة في مصاريف الحرمين الشريفين ، فإن ذلك يعد كافياً لإصدار فرمان من السلطان بتنصيبه على «المخا» وما جاورها إضافة إلى تثبيته أميراً على «أبو عريش» .

ثانياً : تنصيب الشيخ عائض بن مرعي أميراً على عسير .

ثالثاً : تكليف والي جدة عثمان باشا للتنسيق مع الشريف الحسين بن علي بن حيدر حول إمكانية استمالة إمام صنعاء واستدراجه نحو الدولة .

رابعاً : على الرغم من اعتراض السفير الإنجليزي في إستانبول (مستر كاننج) على نتائج مأمورية أشرف بك ، إلا أن المجلس قد اقتنع بوجهة نظر المبعوث

(١) مسائل مهمة - اليمن . وثيقة رقم (١٨٩٧) ، وتاريخ ١١ المحرم سنة ١٢٥٩هـ من مجلس الوكلاء إلى السلطان .

السلطاني بعدم عزل الشريف ، وعلى وزارة الخارجية أن تكتب مذكرة مناسبة من أجل حل الإشكال المتعلق بموضوع القنصلية .

خامساً : إصدار أمر للشريف الحسين بن علي بالإذن للقنصلية الإنجليزية بممارسة مهامها في المخا .

سادساً : أن يتم التنسيق والمشاورة بين الشريف الحسين والأمير عائض مع والي جدة وشريف مكة بشكل دائم ومستمر .

وقد عرضت هذه المذكرة على السلطان فأصدر الإرادة السامية بالموافقة عليها وإقرارها^(١) .

ويعد صدور موافقة السلطان على ما ورد في مذكرة مجلس الوكلاء ، صدر فرمان سلطاني بتولية عائض بن مرعي أميراً على عسير ، على أن ينسق مع شريف «أبو عريش» في كل ما من شأنه حفظ الأمن والاستقرار في المنطقة: «... وإبذل الاقتدار واللباقة باستحصال أسباب حماية القبيلة التي هي تحت إدارتك بحسن الضبط والربط والإدارة ، وباستكمال وسائل صيانتهم ورفاه حالهم واستراحتهم من كل الوجوه دائماً ، واحفظ الطرق والمسالك من مكاييد اللصوص والأشقياء ، حتى يمر المسافرون والعابرون^(٢) وكافة أبناء السبيل بكمال السلامة والراحة والأمنية تحت ظل سلطتنا السنية ، متفقا مع الأمير المشار إليه ، واتبع رأي أمير منطقة مكة المكرمة ... مع والي جدة المعمورة وشيخ الحرم ...»^(٣) .

أمّا بالنسبة للشريف فقد صدر فرمان السلطاني في الثالث والعشرين من شهر المحرم سنة ١٢٥٩ هـ : «... فبالجملة أن ما يقرأه المؤذنون والخطباء من التعريف والخطبة في محافل الجوامع ومنابرها في أيام الجمعة التي هي أعياد المؤمنين وفي العيدين يجب أن يقرأوا بعد اليوم في الأمكنة التي هي تحت إدارتك باسمنا السامي المليكي كما كان، وأن

(١) مسائل مهمة - اليمن . وثيقة رقم (١٧٩٧) وتاريخ ٢ صفر ١٢٥٩ هـ ، من مجلس الوكلاء - إلى السلطان .

(٢) وردت في فرمان هكذا : المسافرين والعاشرين .

(٣) خط همايون ، سجل رقم ١١ ، صفحة ٣٠٨ ، صورة فرمان السلطاني بتاريخ أوائل صفر ١٢٥٩ هـ .

يفرحوا قلوب أهل الإيمان، ويجب عليك أيضاً أن تؤدي وتوفي الترتيبات الحجازية المعينة في أوقاتها وأوانها سريعاً، وأن يصدر ويحرر فرماننا الهمايوني مرة كل ثلاث سنين لإبقائك .

والحاصل فهذه الشروط المقررة وجهنا وفوضنا إدارة خطة «مخا» مع أساكلها، ومع أرض تهامة وجبالها، إلى عهدة أهليتك في اليوم الثالث والعشرين من شهر المحرم الحرام لسنة تسع وخمسين ومائتين وألف ... وبادر بإجراء مراسم المكاتبة والمخابرة مع أمير مكة المكرمة ووالي جدة المعمورة دائماً، واتبع رأيهما وإفادتهما ، وابذل وانشر الجهد والطاقة أيضاً بحماية الأشخاص الذين كانوا تابعين إلى الدول الفخيمة ، ولاسيما الدولة الإنكليزية في القرب والجوار ، تاجراً كان أو غيره ، ممن تبعثهم إذا جاءوا إلى تلك الممالك وذهبوا ورحلوا عنها حسب المصالح ، وما هي معقودة بين دولتنا العلية الأبدية القيام وبين الدول المشار إليها من العهود والشروط ، احفظها وراعها كمال الحفظ والرعاية عن تطرق الخل إليهم ، وخذ رسوم الجمرك على مقتضى التعريفة المقررة ، ولا تأخذ فلساً زائداً وخارجاً من التعريفة ، وأن المأمورين عن جانب الدول الذين يقال لهم «قونسولوس»^(١) لكونهم في مقام وكيل الأجنبي^(٢) يفتحون البانديرة^(٣) من القديم في الممالك الإسلامية ، كما يفتحونه الألبانيون في دار خلافتنا العلية ، فلذا يلزم عليك أن تعطي الرخصة لجميع قونسولوس الدول بأن يقيموا البانديرة ، ويعلقوها أعلى المنازل التي سكنوا فيها ، فقط إذا وجدت في أيديهم برواتنا الشريفة ، وأوامرنا العلية بنصبهم وتعيينهم ، وأوف الترضية العلنية للحركة غير المرضية التي روي وقوعها عن جانبك في حق من هو مأمور الدولة الإنكليزية ، على حسب إيجابها وضمن الضرر والخسار الذي يخبر وقوعه أيضاً عن طرفك ...»^(٤) .

(١) القناصل .

(٢) كلمة فارسية وتركية تعني السفير أو الرسول .

(٣) الراية الأجنبية .

(٤) خط همايون ، سجل رقم ١١ ، صفحة ٣٠٥ . صورة فرمان السلطاني بتاريخ أواسط شهر صفر الخير سنة ١٢٥٩ هـ .

وقد كلف أشرف بك بمناسبة الجلوس السلطاني أن يقوم بحمل فرمان الخاص بالشريف الحسين ، والسفر إلى اليمن لتقليد الشريف الولاية بموجب المراسيم المعتادة ، وقد تم الاتفاق في إستانبول مع السفارة الإنجليزية على أن ترسل قنصلها الرسمي إلى «المخا» ليحضر مراسم التنصيب ، وليقوم أشرف بك بنفسه بإنهاء كافة الإجراءات المتعلقة بفتح القنصلية ، وإصلاح جميع الأوضاع المتعلقة بذلك^(١) .

وفي شهر جمادى الآخرة من عام ١٢٥٩ هـ الموافق يوليو سنة ١٨٤٣ م ، تم تقليد الشريف الحسين منصب الباشوية في مراسم عظيمة على يد أشرف بك ، والتزم بدفع سبعين ألف دولار لخزانة الدولة العلية^(٢) .

وعندما تأخر القنصل البريطاني في الحضور إلى «المخا» ، قام أشرف بك بعد الانتهاء من مراسيم التنصيب بالسفر إلى عدن ليلتقي والشخص الذي سترشحه الحكومة البريطانية قنصلاً في «المخا» ليسلم له مهامه ، ولكن بعد تأخير دام حوالي خمسة أشهر في عدن لم تظهر خلالها دلائل على مجيء القنصل المعين حديثاً ، رحل أشرف بك عائداً إلى الحديدة^(٣) .

وكان طبيعياً أن يتحول موقف البريطانيين من بعثة أشرف بك من التفاؤل إلى الاحتجاج ، وبخاصة بعد تنصيب الشريف في «مخا» وإعلانه «باشا» على موانئ تهامة وما حولها^(٤) ، ولكن المقيم السياسي في عدن «هينز» وكرد فعل على موقف الشريف الحسين بن علي بن حيدر عرض على إمام صنعاء أن يفتح ميناء عدن لتصدير البن اليمني بدلاً من تصديره عن طريق «مخا» ، وقد نجح «هينز» في ذلك ، وأصبح معظم محصول

(١) - Play fair, Op.cit, P. 150 .

وانظر أيضاً : مسائل مهمة - اليمن . وثيقة رقم (١٧٩٧) في ٢ صفر سنة ١٢٥٩ هـ .

(٢) - Play fair, Op. cit, P. 150.

(٣) - Ibib, P. 150.

(٤) فاروق أباطة . المرجع السابق ، ٢٨٢ .

البُنَّ اليمني يصدر لخارج اليمن عن طريق عدن ، حيث يتفادى التجار دفع الضرائب التي كانت تفرض في ميناء «مخا» والحديدة^(١) .

وقد أدى ذلك إلى تدهور هذين الميناءين ، بل تحولت «مخا» إلى مدينة خاملة ، وأصبحت تجارتها ضئيلة ودخلها تافهاً ، كما أن القلة الباقية فيها من سكانها كانوا على استعداد للرحيل إلى عدن إذا ما سمح لهم بذلك ، وكان «هينز» - المقيم السياسي البريطاني في عدن حينئذ - يرقب كل ما يدور عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر وفي الموانئ الواقعة هناك ، وقد أبلغ حكومته فيما بعد عن حالة الانهيار التي اعترت ميناء «مخا» اليمني ممّا سيؤدي بالتالي إلى زيادة ازدهار النشاط التجاري في عدن نتيجة لهجرة معظم سكان «مخا» إليها^(٢) .

وتشير الوثائق العثمانية إلى أن بريطانيا قد تخلت عن ادعائها السابقة بشأن الشريف الحسين، وأنه لا توجد لديهم رغبة في افتتاح قنصلية لهم في السواحل اليمنية^(٣) . وعلى الرغم من ذلك فإن الدولة العثمانية كانت تؤكد في فرماناتها التي كانت تصدرها بشأن تثبيت الشريف في منصبه على ضرورة حماية رعايا وتجار الدول الأوربية ، وبخاصة إنجلترا ورعاياها الواردين إلى تلك المناطق ، والعمل على حمايتهم حماية لائقة بهم وقناصلهم ووكلائهم^(٤) .

وقد اتخذت الدولة العثمانية نفسها سوء علاقة الشريف ببريطانيا ووكلائها في

(١) نفسه ، ٢٨٤ ؛ - Marston, 104.

(٢) نفسه ، ٢٨٥ .

(٣) مسائل مهمة - اليمن . وثيقة رقم (١٨٠٠) وتاريخ ٢٣ رجب سنة ١٢٦٢ هـ من محمد بن عون أمير مكة وشريف محمد رائف والي جدة إلى الصدر الأعظم .

(٤) خط همايون ، سجل رقم (٢٠) صفحة رقم ٢٠ ، ٢١ . فرمان بتجديد ولاية الشريف الحسين بن علي على اليمن بتاريخ أوائل شهر ربيع الأول عام ١٢٦٣ هـ .

خط همايون ، سجل رقم (١٢) صفحة ٢٥٢ ، ٢٧٢ . فرمان بتجديد ولاية الشريف على اليمن بتاريخ أوائل ربيع أول سنة ١٢٦٤ هـ .

المنطقة حجة من بين الحجج التي بررت بها عزل الشريف الحسين كما سنرى فيما بعد ، وإرسال قوة عثمانية بقيادة الشريف محمد بن عون وتوفيق باشا للسيطرة على اليمن ، وذلك أن تلك المعاملة قد أدت إلى ابتعاد التجار الأوربيين عن موانئ اليمن ، ممّا أدى إلى خرابها وتعقيد الأوضاع فيها^(١).

وهكذا فإن الدولة العثمانية قد استغلت حادثة «المخا» وسوء العلاقة بين الشريف وبريطانيا بما يخدم مصالحها وأهدافها في المنطقة ، ففي الوقت الذي كانت محتاجة فيه إلى دعم موقفها وإثبات أن تلك المناطق تخضع لسيادتها بعد خروج محمد علي باشا من اليمن فإنها قد دعمت موقف الشريف الحسين بن علي بن حيدر ضد بريطانيا ، ولم تقبل الضغط البريطاني عليها بشأن عزله أو معاقبته ، وحينما رغبت بعد حوالي خمس سنوات من ذلك الموقف في عزل الشريف ، بسبب تطور الأوضاع في المنطقة خاصة بعد دخول الشريف الحسين في صراعات محلية مع أئمة صنعاء والقوى المحلية الأخرى ، وخوفاً من أي تدخل أجنبي من بريطانيا على وجه الخصوص ، فإن الدولة العلية قد جعلت سوء معاملة الشريف للإنجليز وموقفه منهم أحد الأسباب التي أدت إلى عزله .

* * *

(١) مسائل مهمة - اليمن . وثيقة بدون رقم ، وتاريخ ٢٥ صفر سنة ١٢٦٤ هـ من الصدر الأعظم إلى السلطان .

ثبت المصادر والمراجع

أولاً : الوثائق غير المنشورة :

[أ] - أرشيف رئاسة الوزراء - إستانبول :

- Basbakanlik Arsivi - Istanbul :

- خط همايون رقم ٢٠٥١٧ / E وتاريخ ١٧ شوال ١٢٥٣ هـ .
- مسائل مهمة - اليمن . وثيقة رقم [١٧٩٥] بدون تاريخ (أواخر ١٢٥٧ هـ تقديراً) من مجلس شؤون الهند إلى الحكومة البريطانية .
- مسائل مهمة - اليمن . وثيقة رقم [١٧٩٥] وتاريخ ١٢٥٨ هـ ، من الصدر الأعظم إلى السلطان بشأن سوء علاقة الشريف بالقنصل الإنجليزي في «مخا» .
- مسائل مهمة - اليمن . وثيقة رقم [١٧٩٦] وتاريخ ١٨ صفر ١٢٥٨ هـ ، من محمد أشرف بك إلى الصدر الأعظم بشأن مقابله مع محمد علي باشا .
- مسائل مهمة - اليمن . وثيقة رقم [١٧٩٧] في ٣ ربيع الأول ١٢٥٨ هـ ، من محمد علي باشا إلى السلطان ، تقرير حول مهمة أشرف بك .
- مسائل مهمة - اليمن . وثيقة عربية رقم [١٧٩٧] وتاريخ ٦ جمادى الأولى ١٢٥٨ هـ ، رسالة من الشريف الحسين بن علي بن حيدر إلى والي جدة عثمان باشا .
- مسائل مهمة - اليمن . وثيقة رقم [١٧٩٦] وتاريخ ٢٣ رجب ١٢٥٨ هـ ، من محمد بن عون إلى الصدر الأعظم .
- مسائل مهمة - اليمن . وثيقة رقم [١٧٩٧] وتاريخ ١ شعبان ١٢٥٨ هـ ، من والي الحجاز عثمان باشا إلى الصدر الأعظم .
- مسائل مهمة - اليمن . وثيقة بدون رقم وتاريخ ٤ رمضان ١٢٥٨ هـ ، أسئلة من أشرف بك إلى الشريف الحسين بن علي بن حيدر وإجابة الشريف عليها .

- مسائل مهمة - اليمن . وثيقة رقم [١٧٩٧] وتاريخ ٢١ رمضان ١٢٥٨ هـ ، من والي جدة عثمان باشا إلى الصدر الأعظم .
- مسائل مهمة - اليمن . وثيقة رقم [١٨٩٧] وتاريخ أواخر ١٢٥٨ هـ تقديراً ، من مجلس الأحكام العدلية إلى السلطان .
- مسائل مهمة - اليمن . وثيقة رقم [١٧٩٧] بدون تاريخ ، خلاصة للحفظ أعدها كتبة الديوان .
- مسائل مهمة - اليمن . وثيقة رقم [١٨٩٧] وتاريخ ١١ المحرم ١٢٥٩ هـ ، من مجلس الوكلاء إلى السلطان .
- مسائل مهمة - اليمن . وثيقة رقم [١٧٩٧] وتاريخ ٢ صفر ١٢٥٩ هـ ، من مجلس الوكلاء إلى السلطان .
- خط همايون . سجل رقم [١١] ، صفحة رقم [٣٠٨] صورة الفرمان السلطاني بتاريخ أوائل صفر ١٢٥٩ هـ .
- خط همايون ، سجل رقم [١١] ، صفحة رقم [٣٠٥] صورة الفرمان السلطاني بتاريخ أواسط شهر صفر الخير ١٢٥٩ هـ .
- مسائل مهمة - اليمن . وثيقة رقم [١٨٠٠] وتاريخ ٢٣ رجب ١٢٦٢ هـ ، من محمد بن عون وشريف محمد رائف إلى الصدر الأعظم .
- خط همايون ، سجل رقم [٢٠] صفحة رقم [٢٠ - ٢١] فرمان تجديد ولاية الشريف الحسين بن علي على اليمن ، بتاريخ أوائل شهر ربيع الأول ١٢٦٣ هـ .
- خط همايون ، سجل رقم [١٢] صفحة رقم [٢٥ - ٢٧] فرمان تجديد ولاية الشريف علي اليمن بتاريخ أوائل ربيع أول ١٢٦٤ هـ .
- مسائل مهمة - اليمن . وثيقة بدون رقم ، وتاريخ ٢٥ صفر ١٢٦٤ هـ ، من الصدر الأعظم إلى السلطان .

[ب] - دار الوثائق القومية - القاهرة :

- وثيقة رقم [٣] أصلية [٥٠] حمراء ، محفظة [٢٦٩] عابدين بتاريخ ١٠١ المحرم ١٢٥٦هـ ، من أحمد شكري إلى محمد علي باشا .
- وثيقة رقم [٧] أصلية [١٧٧] حمراء ، محفظة [٢٦٩] عابدين ، بتاريخ ٧ صفر ١٢٥٦هـ من أحمد شكري إلى محمد علي باشا .
- وثيقة رقم [٦] أصلية [١٥٥] حمراء ، محفظة [٢٦٩] عابدين ، وتاريخ ٨ صفر ١٢٥٦هـ ، من وكيل محافظ مكة المكرمة إلى محمد علي باشا .
- وثيقة رقم [١٤] أصلية [٣٨] حمراء ، محفظة [٢٦٩] عابدين ، وتاريخ ٩ ربيع الأول ١٢٥٦هـ ، من أحمد شكري إلى محمد علي باشا .

ثانياً : الوثائق المنشورة :

- وثائق شبه الجزيرة العربية في عصر محمد علي باشا (المجلد الأول والثاني) نشرها د. عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم - القاهرة : دار الكتاب الجامعي ، ١٩٨٣م.

ثالثاً : المراجع العربية :

- آل زلفه ، محمد بن عبدالله . دراسات من تاريخ عسير الحديث . - ط ١ . - مطابع الشريف بالرياض ، ١٤١٢هـ .
- أباطه ، فاروق عثمان . الحكم العثماني في اليمن . الهيئة المصرية العامة للكتاب . - القاهرة : ١٩٨٦م.
- عدن والسياسة البريطانية . الهيئة المصرية العامة للكتاب . - القاهرة : ١٩٨٧م.
- أبو علي ، عبدالفتاح . الدولة السعودية الثانية . - الرياض : مطبعة المدينة ، ١٤٠١هـ .

- أنيس، محمد . الدولة العثمانية والمشرق العربي ١٥١٤-١٩١٤م . - القاهرة .
- ابن بشر ، عثمان بن عبدالله . عنوان المجد في تاريخ نجد ، مكتبة الرياض الحديثة ، (د . م) ، (د . ت) .
- البشري ، إسماعيل بن محمد . حملة خليل باشا على إمارة «أبو عريش» . - ط ١ . - القاهرة : هجر للطباعة والنشر ، ١٤١٦ هـ .
- ابن مسفر ، عبدالله بن علي . أخبار عسير . - ط ١ . - دمشق : المكتب الإسلامي ، ١٣٩٨ هـ .
- البهكلي ، عبدالرحمن بن أحمد . نفع العود في سيرة دولة الشريف حمود ؛ تحقيق الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي . - الرياض : مطبوعات دار الملك عبدالعزيز ، ١٤٠٢ هـ .
- الجبرتي ، عبدالرحمن . عجائب الآثار في التراجم والأخبار . - بيروت : دار الجيل .
- الجرافي ، عبدالله بن عبدالكريم . المقتطف من تاريخ اليمن . - ط ٢ . - بيروت : منشورات العصر الحديث ، ١٤٠٧ هـ .
- الحبشي ، عبدالله محمد . مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن . - صنعاء : منشورات مركز البحوث والدراسات اليمني .
- الحداد ، محمد يحيى . تاريخ اليمن السياسي . - ط ٤ . - بيروت : منشورات المدينة ، ١٤٠٧ هـ .
- حراز ، سيد رجب . الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ، منشورات معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٠ م .
- الحفظي ، إبراهيم بن علي . تاريخ عسير ؛ تحقيق : محمد بن مسلط البشري . - ط ٥ ، ١٤١٣ هـ .
- دحلان ، أحمد بن زيني . خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام . - ط ١ . -

القاهرة : المطبعة الخيرية ، ١٣٠٥ هـ .

- الرافعي ، عبدالرحمن . عصر محمد علي - ط ٥ - . القاهرة : دار المعارف ، ١٤٠٩ هـ .
- شاكر ، محمود . عسير ، المكتب الإسلامي - دمشق ، ١٣٩٦ هـ .
- طه ، جاد . سياسة بريطانيا في جنوب الجزيرة العربية - ط ٣ - . القاهرة : دار الفكر العربي .
- عاكش ، الحسن بن أحمد . الديباج الحسرواني في ذكر أخبار أعيان المخلاف السليمانى ؛ تحقيق : د . إسماعيل بن محمد البشري ، تحت الطبع .
- حدائق الزهر في ذكر الأشياخ أعيان الدهر ؛ تحقيق : د . إسماعيل بن محمد البشري - ط ١ - . القاهرة : دار هجر للطباعة ، ١٤١٣ هـ .
- عقود الدرر بتراجم علماء القرن الثالث عشر ؛ تحقيق : د . إسماعيل بن محمد البشري ، تحت الطبع .
- عبدالرحيم ، عبدالرحيم عبدالرحمن . الدولة السعودية الأولى - ط ٤ - . القاهرة : دار الكتب الجامعي ، ١٤٠٢ هـ .
- محمد علي وشبه الجزيرة العربية - ط ٢ - . القاهرة : دار الكتاب الجامعي ، ١٤٠٦ هـ .
- المغاربة في مصر في العصر العثماني - تونس ، ١٩٨٢ م .
- العبدلي ، أحمد فضل بن علي . هدية الزمن من أخبار ملوك لحج وعدن - ط ٢ - . بيروت : دار العودة ، ١٤٠٠ هـ .
- العثيمين ، عبدالله صالح . تاريخ المملكة العربية السعودية - ط ١ ، ١٤٠٤ هـ .
- عسيري ، علي بن أحمد . عسير من ١٢٤٩ هـ - ١٢٨٩ هـ ، مطبوعات نادي أبها الأدبي ، ١٤٠٧ هـ .

- العقيلي ، محمد بن أحمد . تاريخ المخلاف السليماني . - ط ٢ . - الرياض : منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٤٠٢ هـ .
- محاضرات في الجامعات والمؤتمرات السعودية . - جدة : منشورات نادي جازان الأدبي ، مطابع دار البلاد .
- العمري ، حسين بن عبدالله . مائة عام من تاريخ اليمن الحديث . - ط ١ . - دمشق : دار الفكر ، ١٤٠٥ هـ .
- فترة الفوضى وعودة الأتراك إلى صنعاء . - ط ١ . - دمشق : دار الفكر ، ١٤٠٦ هـ .
- الغنام ، سليمان بن محمد . قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية . - ط ١ . - جدة : منشورات تهامة ، ١٤٠٠ هـ .
- مجهول . حوليات يمانية ؛ تحقيق عبدالله محمد الحبشي . - صنعاء : منشورات وزارة الإعلام والثقافة .
- المحامي ، محمد فريد بك . تاريخ الدولة العلية العثمانية ؛ تحقيق د . إحسان حقي . - ط ١ . - بيروت : دار النفائس ، ١٤٠١ هـ .
- النعمي ، أحمد بن أحمد . حوليات النعمي التهامية ؛ تحقيق : د . حسين بن عبدالله العمري . - ط ١ . - دمشق : دار الفكر ، ١٤٠٧ هـ .
- النعمي ، هاشم بن سعيد . تاريخ عسير في الماضي والحاضر ، د . م .

رابعاً : المراجع الأجنبية :

- al - 'Amri . H.A : The yemen in the 18th and 19th centuries, Ith-ica press , London , 1985 .
- Hitti , p.K. : History of the Arabs , London , 1960 .

- **Hogarth , D.F.** : Arabia , Oxford , 1922 .
- **Kay , H.C** : Yaman , Its early mediaeval history , switzerland , 1968.
- **Niebuhr , carsten** : Travels through Arabia and other countries in the east , trans . R . Heron , Edinburgh , 1792 .
- **philby . H.st.J** :
Arabia of the Wahhabis , London , 1928 .
- **Playfair , R.L** : AHistory of Arabia Felix , st . Leanonards and Amsterdam , 1970 .
- **Bidwell , R** : The Two Yemens , Longman westview press, 1983 .
- **Marston, Thomas E** : Britain's Imperial Role in The Red Sea Area
1800 - 1878.
Hamden, Connecticut . 1961.